

الأمة العربية ، الدولة ، الاقتصاد نقد فكر سمير أمين

شمس الدين الكيلاني

1 - لا شك ، أن سمير أمين قدم لنا نظرية مبتكرة عن «الأمة» . ولكنه في غلوائه وتركيزه على السياسي (الدولة) ، الذي أغفله ستالين ، فإنه ينتقل إلى خطأ مقابل ، إذ يغفل تنوع السبل التاريخية لنشوء الأمم . فلا نفاجأ بعد ذلك عندما يعطينا مفتاحاً ، أو خيطاً لتطوير نظريته ، لمواجهة فقرها وعناد وتعقيد الواقع ، بتركيزه على طريقة اقتطاع الفائض لفهم تكون الأمة ، فيعرض لنا كيف تكونت الأمة اليونانية استناداً على وظيفة التجارة الدولية ، بدون أن تحتاج لعامل الدولة ، أو الطبقة القومية المركزة . غير أن هذا لا ينقله سوى إلى التواء وتبسيط نظريين ، باقياً أسير القوالب الجامدة ، وبعيداً عن استيعاب غنى الشروط التاريخية المختلفة لتكون كل أمة على حدة .

على قاعدة تلك الخلفية النظرية التي انصرفنا لسرد منطقها الداخلي الضمني(*) يتقدم سمير أمين ليقبض مفهوماً ، وتاريخياً على الأمة العربية ، متصدياً لوضع نظريته عنها ، لكن الواقع يظل دائماً أغنى من أغنى النظريات ، فكيف به إذا كان يواجه أفقرها!

عندما يتقدم - أمين - لعرض نظريته عن الأمة العربية ، فهو لا يقدم الفطنة والمخاطرة النظرية ، ولا القدرة على التجريد لاستخلاص أهم المفاهيم ، ولا

(*) هذا المقال جزء من بحث «نقد فكر سمير أمين من القضايا القومية العربية».

الأدوات المفهومية، التي يتقدم بها لتمثل شروط تكون الأمة العربية. ولكن ما ينقصه إنما هو صبر الباحث، وإحاطته، وانفتاحه على التاريخ، ودقة البحث، وعدم التسرع في الأحكام، إلا أن هذا لا يمنعه من التقاط بعض جوانب الواقع، أو القبض على بعض العوامل المهمة فيه، وإن كان يهمل أخرى لا تقل أهمية. إن التسرع في التعميم وقياس الأمة العربية على قالب مفهومي مجلوب من الخيال هو التربة التي تنبت عليها جذور أخطائه. ولقد ظل، بكل الأحوال، داخل نفس التربة النظرية للمستالينية، والماركسية العربية المسكوفية، وإن استعار لغة مشحونة بالهوى الماوي، مأخوذاً في حدوده القصوى.

2 - صحيح ما يذهب إليه سمير أمين، من أن الأمة العربية تكونت تاريخياً وحول ضرورة رؤية «العالم العربي في ظروفه الحقيقية، ظروف منطقة هي بمثابة ممر يصل بين المناطق الكبرى لحضارات العالم القديمة: هذه المنطقة شبه الصحراوية تفصل بين ثلاث مناطق لها حضارة زراعية: أوروبا، وأفريقيا السوداء، وآسيا الزراعية»⁽¹⁾. ومن جراء ذلك، ملأت هذه المنطقة دائماً الوظائف التجارية التي كانت تربط العوالم الزراعية التي لا يعرف بعضها بعضاً⁽²⁾. إلا أنه ينتقل من تحديد هذا الموقع الخاص للعرب، إلى الدفع بعامل التجارة الدولية لجعل منه الفيصل الحاسم لتطورها، دون الالتفات الكافي للعوامل الأخرى التي تقاطعت معه. فبعد أن يقول بحق «العالم العربي يعطي مثلاً جيداً لتشكيلة اجتماعية متميزة بالأهمية الاستثنائية التي تحملها التجارة البعيدة المدى»⁽³⁾ لا يلبث أن يعظم من هذا الدور الاستثنائي لدرجة أن «الوحدة العربية كانت الحصيصة التاريخية للتركز التجاري، وطبقة المحاربين اضطلعت بهذا الدور»⁽⁴⁾، وأن الفائض الحاسم الذي كانت تعيش عليه يأتيها من التجارة

(1) سمير أمين، التطور اللامتكافى، ترجمة برهان غليون، دار الطليعة، ط2، 1978، ص 33 - 34.

(2) المصدر السابق، ص 34.

(3) المصدر السابق، ص 32.

(4) سمير أمين، الأمة العربية، ترجمة كميل أسعد داغر، دار ابن رشد، بيروت، ص 13.

البعيدة⁽¹⁾. لذا غالباً ما ولدت التكوينات المتمحورة على التجارة الكبيرة أمماً، كما تشهد على ذلك اليونان، والعالم العربي⁽²⁾. ومن هنا يمكن فهم كيف استطاع العالم العربي، على عكس أوروبا، لأنّ اقتصاده ضريبي، خراجي تجاري أن يحتفظ بطابعه الأكثر وحدة⁽³⁾: «في هذا العالم تبقى الطبقة القائدة طبقة مدنية، مؤلفة من رجال بلاط، من تجار، ومن رجال الدين ومن حولهم شعب الحرفيين والمتدنيين الذي يميز المدن الشرقية، وتكون الطبقة القائدة لحمة هذا المجموع: فهي بنت في كل مكان لغة واحدة، وثقافة واحدة إسلامية شديدة العمق. هذه الطبقة هي التي صنعت الحضارة العربية وازدهارها تم بفضل التجارة البعيدة»⁽⁴⁾. لقد كانت هذه الوحدة (العربية) إذن بفعل طبقة تجار - محاربين، لا طبقة أرستقراطية.. هذا هو استمرار الوحدة اللغوية والثقافية في النطاق العربي⁽⁵⁾ لا خلاف حول أهمية التجارة، والطابع المدني للحضارة العربية، فحديث أمين حول هذا الموضوع لا يتعدى ما يقوله لومبار، ورودنسون، أو منير شفيق، والياس مرقص، وآخرون. غير أن ما يتميز به مقال سمير أمين عن هؤلاء هو حصره الأمة العربية وراء الفاعلية التجارية العالمية كسبب وحيد فاعل، وأن يضع الدولة، والطبقة القومية ذات الفاعلية التجارية، كحامل اجتماعي - سياسي للتجارة الدولية. من هنا تعليق مصير الأمة العربية بمصير هذه الفاعلية الفارقة التي بانتكاستها انتكاسة للأمة العربية، من حيث الوجود والمصير، متناسياً كلياً فاعلية الطبيعة الجغرافية التي سمحت لسكان الأرض العربية، بدون عائق يذكر، بإقامة علاقات وثيقة جداً فيما بين بلاد النهرين والشام وشبه الجزيرة العربية، وشمال أفريقيا⁽⁶⁾،

(1) المصدر السابق، ص 16.

(2) المصدر السابق، ص 144.

(3) المصدر السابق، ص 37.

(4) سمير أمين، التطور اللامتكافئ، ص 40.

(5) راجع، سمير أمين، الأمة العربية، مصدر سابق، ص 37.

(6) راجع توفيق سلوم، دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة، دار دمشق، 1985،

بالإضافة إلى تجاهله قدم الاختلاط السكاني الذي يمتد عمقاً في التاريخ، والقرابة اللغوية، وقوة الفتح العربي الإسلامي، وما لعبه الإسلام كدين وحامل للغة القرآن الكريم من أثر، بالتلازم مع فاعلية الدولة العربية، والنخبة العربية الإسلامية الحاكمة التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون، وإن امتدت هيمنتها المعنوية والثقافية أكثر من ذلك بكثير؛ ولغلبة ميول التوحيد السياسي، على تاريخ المنطقة العربية خلال تاريخها الطويل.

لا يمكن التسليم بالطابع المقرر للعامل التجاري في وجود الأمة العربية، أو بدور الدولة الواحدة، مع وجود طبقتها المهيمنة المرتكزة على الفائض المجني من التجارة الدولية، لقد لعبت عوامل أخرى تفاعلت كلها في قلب التاريخ لتكون من حصيلتها الأمة العربية.

لقد بلغ استخفافه بالوقائع التاريخية الصارخة، أن قرّن الإسلام - العامل الكبير في نشوء الأمة العربية - بالبدو الرّحل كجسد اجتماعي للإسلام، وبالتجارة وكأنه وظيفتها الأيديولوجية، ذاكراً «أن الإسلام ولد في الجزيرة العربية في الصحراء، في حضن السكان الرّحل الذين كانت وظيفتهم القيام بتنظيم التجارة الكبرى بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية من جهة، وجنوب شبه الجزيرة العربية وأثيوبيا والهند من الجهة الأخرى»⁽¹⁾، مقلّلاً بذلك من أهمية، وفاعلية، وتميُّز الظاهرة الدينية الإسلامية، ومن عمق النزعة التوحيدية في الإسلام، كاستباق نظري - لاهوتي لما سيحدث من توحيد سياسي، وتوحيّجاً وعلى جميع الأصعدة لمسارب وتيارات التوحيد العميقة التي يتميز بها تاريخ المنطقة، علماً أن الإسلام ظهر في بيئة عربية مدنية، واتخذ موقفاً سلبياً واضحاً من البداوة⁽²⁾.

لذا، لا يمكننا معاناة تأثير الفاعلية التجارية على تكوّن الأمة العربية، إلا في إطار

(1) سمير أمين، التطور اللامتكافئ: مرجع سابق، ص 74. أيضاً الأمة العربية، ص 18.

(2) راجع عبد العزيز الدوري، التكون التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص 7.

التفاعلات بين العوامل الكبرى الأوسع التي تضافرت في إبراز الوجود القومي للعرب .

2 - لقد خضعت الأمة العربية لتاريخ طويل موحد، تكونت في سيرورته عوامل نشأتها كأمة، هذا التاريخ لم يكتب بصورته المكتملة بعد. إن الأمة العربية، ككل الأمم الأخرى، نشأت في كنف التاريخ. ولهذه الأمة كمثيلاتها من الأمم تاريخها الخاص النوعي، بما في ذلك قَدَم الاختلاط السكاني، والتأثرات اللغوية، وقد سهلتها الطبيعة الجغرافية، والاستراتيجية للأرض العربية، بالإضافة إلى الإسلام، وبرزت الدولة العربية الموحدة (الأموية، العباسية) والميل التوحيدي الغالب للتاريخ السياسي للمنطقة، والطابع المدني التجاري للمدينة العربية؛ لعب كل ذلك أدواراً متكاملة ومتضافرة في بلورة الأمة. وفي هذا السياق تطرح أهمية التجارة الدولية للعرب. إن موقعهم أهلهم وحدهم ليكونوا سادة الملاحة البحرية التجارية على البحر الأحمر إلى الجزيرة الهندية مروراً بالمحيط الهادي، وسادة الطرق البرية المارة في صحرائهم، معتمدين الإبل التي لولاها لما كانت هناك تجارة برية قادرة على اختراق الصحراء، ولما كان هناك الطريق التجاري العظيم الذي أوله اليمن وآخره بلاد الشام أو فارس أو آسيا الصغرى، مخترقاً قلب الجزيرة العربية. ولما كان هناك أيضاً الطريق الذي يصل البحر المتوسط وبلاد الشام، ومصر بالخليج العربي.

على تعدد طرق التجارة الدولية المنطلقة من البحر المتوسط، أو أفريقيا أو آسيا الصغرى المتصلة بالبحر الأحمر والمحيط الهندي أو الشرق الآسيوي عبر فارس، كانت أغلبها تمر أو تتقاطع في الجزيرة العربية، واستمر هذا الحال حتى اكتشاف خط الرجاء الصالح، وتدمير الأسطول الإسلامي. كانت السفن والقوافل تحمل من الهند طيوباً وتوابل وأنسجة وبخوراً وعاجاً، ومن أفريقيا الذهب السوداني ومعه العاج والقروود والعبيد وجلود الفهود، ومن أسبانيا وما حولها الفضة والنحاس والقصدير، ومن بعض مناطق أوروبا معادن ومنتجات زراعية هذا فضلاً عما تنتجه مختلف البلدان من نفائس،

ومصنوعات، وبهذا كان جنوب الجزيرة العربية نقطة تتجمع فيها ما تحمله السفن من بلاد الشرق والغرب، وما تحط به القوافل من أفريقيا، ناهيك بذهب الجزيرة ولبان ظفار وحضرموت، ثم تندفع القوافل من هناك عبر العدد الكبير من البلدان حتى يصل بعضها أقصى المغرب العربي ليعود قافلاً بما تتاجر به أسبانيا والبرتغال والجزر المحيطة، أو ما يرد المغرب الأقصى من تجارة أفريقيا ذهباً سودانياً وعاجاً ورقيقاً، أو ما تصدره أوروبا المتوسطة، لتعود الرحلة محملةً إلى بلاد الهند والصين وجنوب شرق آسيا⁽¹⁾.

3 - إن ضرورة الحفاظ على أمن التجارة الدولية هذه، وقوافلها المتتابعة وأرباحها، قوى من هيمنة ميل التوحيد السياسي، الذي سيفعل فعله على عملية الاندماج والتمثل من البوتقة العربية. هذا الميل التوحيدي سيظهر واضحاً على التوجه السياسي لكافة الإمبراطوريات المتعاقبة على المنطقة في سعيها الحثيث نحو ضم الجزيرة العربية تحت سطوتها، مع إخفاقها الدائم، إلى أن ظهرت قوة التوحيد هذه من قلب الجزيرة العربية على يد قریش، وتحت راية الإسلام.

فشلت المملكة الأكادية، وكذلك مملكة بابل في السيطرة على الجزيرة العربية رغم احتلالهما الشام وشبه جزيرة سيناء. اقتصرت سيطرتهم، فقط، على جزئها الجنوبي اليمني المتحكم بالخط التجاري البحري. ينطبق الأمر نفسه على توسع الدولة الآشورية التي بسطت هيمنتها حتى حدود المغرب، مروراً بالشام ومصر، فلم تستطع سوى وراثة السيطرة على الجنوب.

(1) راجع منير شفيق في الوحدة والتجزئة، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص 12. أيضاً برنارد لويس، العرب والتاريخ، ترجمة نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت 1954، ص 26 - 27. راجع أيضاً ديتلف نيلسون وفرتز هومل وآخرون. تاريخ العرب القديم، ترجمة فؤاد حنين علي، مكتبة النهضة المصرية 1958، ص 114 - 115.

لم يتوقف الزحف الفارسي اختياراً عند عتبات الجزيرة العربية بل عنوة، ومات حلم الإسكندر المقدوني بالسيطرة عليها مع موته. الطبيعة الجغرافية، وطبائع البشر، كانا كالسيف الرادع لكل غاز. الصحراء والبدو وقفاً حائلاً دون استقرار الجزيرة العربية تحت سلطة مركزية واحدة.

مشروع الهيمنة على الجزيرة العربية ودمجها في الكل الأوسع، المنطقة العربية الحالية، ظلت تتنازع بشكل رئيسي قوى ثلاث: فارس الساسانية في الشمال والشرق، وبيزنطة وريثة روما من الغرب والشمال، وسبأ الحميرية في جنوب الجزيرة العربية⁽¹⁾.

قامت (ممالك التخوم) ذات الأصل العربي، على خطوط التجارة العالمية التي تمتد من روما عبر بلاد العرب إلى الشرق الأقصى بمحاذاة حدود كلا الإمبراطوريتين: فارس وبيزنطة مع الجزيرة العربية. استعانت كلا الإمبراطوريتين بها في حرب الواحدة ضد الأخرى، اتخذتا منها ترساً لصدد غزوات الصحراء العربية التي لا يمكن إخضاعها، ولتأمين سلامة القوافل التجارية. كانت دولة الأنباط - عاصمتها البتراء - الممتدة من خليج العقبة حتى البحر الميت، وتدمر (القرن الثالث ميلادي) الممتدة في بادية الشام حليفتين لروما. وفي العهد البيزنطي ظهرت إمارتان من العرب النصراني الغساسنة، واللخميون. نزل بنو غسان الأراضي السورية، وأقام

(1) راجع عبد العزيز الدوري، التكون التاريخي للأمة العربية، مصدر سابق، ص 29، حيث يقول «ثلاث قرون قبل الإسلام... في هذه الفترة ظلت ثلاث قوى دولية تتنازع النفوذ والسلطة في المنطقة وهي إيران الساسانية وبيزنطة وحمير». وراجع كلود كاهن تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، جزء أول، ص 13: «ومنذ زمن بعيد سعى الساسانيون والبيزنطيون حول الجزيرة العربية إلى انتزاع السيادة على طرق التجارة البرية والبحرية فقد أشرف الفرس على الطرق المنطلقة من الخليج الفارسي، بينما حاول البيزنطيون مساندة طرق أخرى على المحيط الهندي بمعونة الأحباش في اليمن، كما دعموا المواصلات التجارية على البحر الأحمر، وامتدت هذه الخصومة بين الدولتين إلى سائر الجزيرة العربية».

اللخميون - أهل الحيرة - غرب مصب الفرات حلفاً لفارس في حربها وتجارته.

مع الأنباط اندفعت روما بعمليتها الفاشلة للسيطرة على اليمن (24 - 25ق.م) ومع أذينة ملك تدمر قاتلت روما فارس، ومع الحيرة قاتلت فارس الدولة البيزنطية.

ظلت الجزيرة العربية موضوعاً للسياسة طالما لم تجد القوة الكافية من داخلها، إلى أن نهضت على كتف الإسلام حاولت سباً من قبل وأخفقت. لقد اكتمل نمو الدولة السبئية قبل عدة قرون من التاريخ الميلادي، وحوالي 750ق.م بُني سد مأرب، استفادت منه في التنظيم الزراعي، بجانب استفادتها من الإشراف على الخط التجاري (مصر، البحر الأحمر، المحيط الهندي). منذ فتح الإسكندر بلاد الشام بدأ الاهتمام الجدي بالبلاد العربية الجنوبية، أرسل البطالمة سفنهم عبر البحر الأحمر إلى الهند. وعلى الرغم من فشل الحملة الرومانية المعززة من النبطيين عام (24 ق.م) إلا أنها كانت كافية، بعد دخولهم إلى البحر الأحمر - كما يشير إلى ذلك الدكتور جواد علي - لضرب اليمن التجاري الذي كان من آثاره انهيار سد مأرب العظيم⁽¹⁾. فاستمرت الدولة السبئية بالاضمحلال إلى أن وقعت تحت سلطة الحميريين «وهم شعب عربي جنوبي آخر، وقد اعتنق آخر ملوك الحميريين (ذو نواس) اليهودية»⁽²⁾ تحت حجة الثأر للنصارى من مضطهديهم الحميريين. اندفعت الحبشة يساندها البيزنطيون إلى غزو الدولة الحميرية وقضت عليها. لم تكتف الحبشة بالسيطرة على اليمن، وامتلاك طريق العطور، بل اندفعت شمالاً بقيادة (أبرهة الأشرم) - أواخر القرن السادس الميلادي - لاحتلال مكة لتوحد المنطقة تحت هيمنتها. إن اندحار الغزو كان إيذاناً بسقوط آخر مشاريع الهيمنة، وبشيراً أكيداً بالدور التوحيدي لمكة مستقبلاً.

(1) راجع: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، جزء (4)، ص 159.

(2) برنارد لويس، العرب في التاريخ، مصدر سابق، ص 30.

في مدار صراع وتقاطع القوى، رد ملك الفرس أنو شروان (531 - 578) على الاندفاع الحبشي بحملة إلى اليمن مستغلاً ضعف الأحباش بعد معركتهم الخاسرة أمام مكة، يساعده عرب الجنوب بقيادة (سيف بن ذي يزن)، وبعد هزيمة الأحباش حل محلهم الفرس، الذين لن يجلووا عن الديار الجنوبية إلاّ أمام جيش الفتح العربي الإسلامي.

عندما حاولت (ممالك التخوم العربية) إنجاز المهمة التوحيدية بالاستقلال عن ارتباطاتها بالإمبراطوريات المجاورة واجهت امتحان البقاء لتنهار بالنهاية أمام بطش الإمبراطوريات المهيمنة، هذا ما جرى لتدمر ولدولة الأنباط على يد روما، وما لقيته الحيرة على يد فارس. وفشلت اليمن أيضاً تحت ضغط الانقسام الديني المحمول من الخارج الذي وظّف كنقطة ارتكاز للتدخلات الخارجية مما حبس جهود اليمن في دائرة تنازع الإمبراطوريتين: الساسانية والبيزنطية.

4 - ما عجزت عن إنجازه الإمبراطوريات المحيطة بالجزيرة العربية، والدويلات العربية الطرفية، تكفلت به ميول التوحيد النامية في قلب الجزيرة العربية إذا استثنينا مدن التخوم الشمالية، ومدن الجنوب اليمنية النامية على قاعدة الحضارة الزراعية - التجارية، وسكان الواحات المنتشرين هنا وهناك، ظلت القبيلة الوسط الاجتماعي السائد في الجزيرة العربية، وظل التوزيع السكاني بين الحياة الحضرية والبدواة القانون السائد. منذ القرن الرابع بدأت علائم التمايز الاجتماعي تفعل فعلها في العلاقات القبلية الداخلية يصاحبها ميل واضح لتكوين الاتحادات القبلية، التي كانت بمثابة صوى على الطريق التوحيدي الطويل الذي ستلعبه قريش لاحقاً. فامرؤ القيس يبسط سلطانه - كما يشير الدوري - على وسط الجزيرة العربية وغربها في مطلع القرن الرابع الميلادي، ويسمي نفسه (ملك العرب)، وكندة تبسط اتحادها القبلي وسط الجزيرة العربية، وتجمع حولها تحالفاً حقيقياً يعتبر الخطوة الأولى نحو توحيد الجزيرة العربية - كما يشير إلى ذلك كلود كاهن. وإرهاصاً للتوسع الإسلامي فيما بعد على حد تعبير

برنارد لويس. صحيح أن انهارت كندة لفقدانها التماسك الداخلي ولفشلها في اختراق الحواجز المقامة من قبل الإمبراطوريتين الجارين. ولكن هذا لا يقلل من الأثر الثقافي التوحيدي على قبائل الجزيرة العربية مما يدفع لويس إلى رد إرهاب الوحدة الثقافية التي تجلّت في سيادة اللغة الشعرية ذات الخصائص الواحدة في القرن السادس «إلى مأثرة كندة وأخبارها التي كانت أول عمل خطير مشترك قامت به قبائل وسط الجزيرة العربية وشمالها»⁽¹⁾.

بالتوافق مع القرن السادس قوي دور الجزيرة العربية في التجارة الدولية بشكل لم تشهده من قبل، فالصراع المحتدم، إبان هذه الفترة، بين فارس وبيزنطة أحاط طريق الفرات - الخليج العربي بالمخاطر الجدية. يضاف إلى ذلك الأخطار المحيطة بالخط التجاري بين مصر - البحر الأحمر - اليمن - الهند من جراء الاضطرابات الجارية في مصر، والاحتلال الحبشي لليمن. وما سبق ذلك كله من انهيار ممالك التخوم: تدمر، الأنباط، مما سيعطي، ذلك كله، للطرق المارة في وسط الجزيرة والواصلة بين اليمن - الشام، اليمن - الخليج العربي، وللطريق المحاذي للبحر الأحمر أهمية كبرى. على هذه الطرق ستدب الحياة، وتنمو المدن والداكر، وسيكون لمكة التي نزلت فيها قريش شأن جليل في التجارة على هذه الطرق. موقع قريش - مكة - ودورها في الإشراف على الطرق التجارية تلك سيساعدها على ضم القبائل المجاورة تحت قيادتها، وعلى إنماء وبلورة جنين الدولة. فكان الملاً (زعامة قريش) والندوة (مقر الاجتماع) إشارة البدء لتكوّن الدولة. نظمت الأسواق - أهمها موسم الحج - تباع لأعراب البادية ولأهل القرى والواحات ما عندها لقاء المال، وتدفع بالفائض في قوافلها التجارية إلى الأسواق الخارجية: العراق، الشام، وتشترى هناك ما يحتاج إليه زبائنهم في الجزيرة العربية. أخضعت تجارتها مع بيزنطة وفارس والحبشة - كما يشير لامانس - إلى الاتفاقات، ونظمت بجانب ذلك جباية الضرائب وأشكال

(1) برنارد لويس، العرب في التاريخ، مصدر سابق، ص 3.

المعاملات من إجارة ودين ورهان وبيع ومزارعة⁽¹⁾ مما سهّل لقريش التي قوّت الخط التوحيدي التجاري السياسي، أن تدفع بخط التوحيد اللغوي، على أساس لغة قريش إلى أمام، وأن تشدد من غلبة تيار التوحيد الديني، مرتقيةً بالوعي الديني القبلي (الديانة الوثنية) إلى توحيد عبادات القبائل المختلفة حول عبادات مشتركة كان للكعبة دور الرمز في هذا التوحيد. ومن ثم الانتقال إلى التوحيد (الحنفي) الذي يعتبر بمثابة عتبة للوعي التوحيدي الإسلامي. كما ستؤكد نفسها على المستوى الثقافي، بخلقها الوحدة الثقافية على أساس الشعر الجاهلي والخطابة⁽²⁾.

(1) أنظر: جواد علي، العرب قبل الإسلام. مصدر سابق، جزء رابع، ص 158. راجع أيضاً حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، جزء أول، دار الفارابي، 1978، ص 225. وأيضاً عبد العزيز الدوري، مقدمة في الاقتصاد العربي إذ يقول: «كانت مكة مركزاً دينياً وتجارياً. وتوسّعت فعاليتها في القرن السادس الميلادي، خاصة وأن الصراع البيزنطي الساساني أدى إلى شقّ تجارة الهند إلى الخليج العربي، كما أن سقوط الدولة السبئية على يد الأحباش، ومشاكل طريق البحر الأحمر مكنت قريش أن تسيطر على طريق التجارة المارة بقرب الجزيرة. وصارت بيد قريش تجارة القوافل في الجزيرة، وبلاد البحر الأبيض، كما مدت صلاتها التجارية إلى الخليج العربي والعراق، وتكونت فيها أرستقراطية تجارية نشطة حاولت عن طريق الاحتكارات أن تنمي ثروتها واتخذت المال سبيلاً لتأكيد قوتها ونفوذها» ص 12. وكذلك طيب تيزيني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، المرحلة الأولى، دار دمشق، ص 139.

(2) حسين مروة، النزعات المادية... جزء أول، مصدر سابق، ص 255 - 256 - 257 «ليست تعوزنا الدلائل على أن الظروف التاريخية التي جعلت مكة تتمتع بمكانتها الخاصة والفاعلة في مجالات النشاط التجاري والاقتصادي والاجتماعي والديني، هي نفسها الظروف التي جعلت من لهجة قريش قطباً جاذباً تتلاقى عنده وتتفاعل به سائر اللهجات العربية الشمالية بالأخص ولا بد أن هذا التلاقي وهذا الانفعال قد أمكن أن ينتهيا خلال القرن السادس الميلادي، إلى نوع من الانصهار والتوحيد في لهجة مشتركة متميزة عن سائر اللهجات بكونها لغة التعبير الفني في الشعر والخطابة والحكم والعظات... كانت الظروف والعوامل التاريخية التي فرضت لغة قريش، كلفة مشتركة كانت هي أساس توجه الدعوة، قرآناً وحديثاً، إلى العرب بلغة ألفوها وتواضعوا عليها».

5 - إضافة إلى عوامل الانحلال الداخلية للقبيلة والانفتاح على اتحادات أوسع، ولدور التجارة الدولية، والتعمق الدائم لنزعة التوحيد الدينية والثقافية، فقد لعبت ضرورة رد العدوان الخارجي في بلورة حافز الوحدة السياسية. لقد كان الخطر المزدوج البيزنطي والساساني الجاثم بالجوار، كقوة تهديد دائم، مثاراً للجزع، ورافعةً لوعي ضرورة الوحدة السياسية، وكشفاً عن عوامل القوة فيها. لقد كان لمعركة ذي قار (609) رجعٌ قويٌّ في الحياة القبلية للجزيرة العربية، وإظهارٌ واضحٌ للعصبية العربية، وإن قول الرسول (ص): «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم» يحمل تمييزاً قومياً واضحاً بين العجم والعرب «وهو يضيف على الحادث معناه التاريخي شبه الحاسم، وهو المعنى الذي استمدته من طبيعة تلك المتغيرات المتحركة يومئذ على صعيد المنطقة. وطبيعتها هي طبيعة الاتجاه العام للأحداث نحو التكون الجيني لمجتمع عربي بمعنى الكينونة الكيفية للمجتمع»⁽¹⁾.

صراع الهيمنة بين فارس وبيزنطة الذي استهدف اليمن كساحة أمامية للصراع، جلل المنطقة شعوراً بالخطر، والانتصار على الأحباش ورد الفرس حفزاً الوعي بالانتماء العربي. ويذكر أنجلس في رسالة منه لماركس 1853: «تم طرد الأحباش قبل محمد بنحو أربعين سنة، وكان - بداية - أول عمل ليقظة الوعي القومي العربي الذي حثته الغزوات الفارسية من الشمال مندفعةً حتى مكة تقريباً»⁽²⁾.

لا يمكن تجاهل الوجه الوحدوي الغالب لظاهرة الإسلام إن كان على مستوى التوحيد الديني، أو الثقافي، أو السياسي. وإسلام زمن النبوة وزمن الفتح لا يمكن فصله عن إرادة التوحيد السياسي وعن تنازع الهيمنة على المنطقة⁽³⁾.

(1) حسين مروة، النزعات المادية. جزء أول، مصدر سابق، ص 314.

(2) ماركس، أنجلس، مراسلات ماركس أنجلس. دار الطليعة، ص 56 - 57.

(3) الياس مرقص، مع رودنسون وتوما. . . الأمة والمسألة القومية، الوحدة العربية والماركسية. دار الحقيقة، بيروت، «ص 80» حيث يقول مرقص في مقال: الأمة العربية، الوحدة، =

6 - كان الإسلام تتويجاً نوعياً لنزعات التوحيد بكل أنواعها مأخوذة في حدودها القصوى: الديني، السياسي، الثقافي، واستباقاً نظرياً لما يحدث واقعياً بعد الفتح من توحيد للعرب، وترسخ للثقافة العربية - الإسلامية. لذا، إن قرن - أمين - للإسلام بالبداوة والتجارة، ما هو إلا إفقار حقيقي للظاهرة الإسلامية، وبعداً أكيداً عن الحقيقة⁽¹⁾. فلا يمكن بحال فصل تبلور الأمة العربية عن الإسلام واندفاع الفتح العربي. فبدون فهم تأثير الإسلام كدين ولغة، والميل التوحيدي لاقتصادها - السياسي، واستقرار فاعلية التعريب والأسلمة، لما كنا نرى تبلوراً حقيقياً للأمة العربية منذ أكثر من ألف عام. كما لا يمكن فصل العامل الأيديولوجي الفكري الشعوري والإسلام ولغة القرآن والثقافة الواحدة، عن الامتزاج اللغوي السكاني البعيد الغور، ووعي ضرورة الوحدة، واستمرار وحدة الدولة العربية، بنخبته العربية عن العامل الاقتصادي: التجارة الدولية بين إمبراطوريات العالم القديم، والتبادلات الداخلية للإمبراطورية العربية.

= الإمبريالية، الثورة الاشتراكية «نود أن نشير أيضاً إلى أن أنجلس والمستشرق الفرنسي الماركسي المعاصر، مكسيم رودنسون، يربطان ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي (بين عدة عوامل أخرى) بظروف ما يمكن تسميته مسألة الهيمنة العالمية. فالقوتان العالميتان آنذاك فارس وبيزنطة (أو فارس وبيزنطة ومعها الحبشة) كانتا تتصارعان للهيمنة على هذه المنطقة المركزية من العالم، وبالتحديد تسعيان للسيطرة على جزيرة العرب (...). وقد انطلقت المهمة المذكورة من عرب الشمال، من الحجاز ولم تلبث أن قامت الدولة العربية الإسلامية الكبرى، أي أن الزعامة والهيمنة في المنطقة المركزية بين الشرق الأقصى والغرب للعرب لردح طويل من الزمن».

(1) لم يعط أمين الظاهرة الدينية حقها، يكفي أنه قرن كمال الدين بتحوله إلى دين دولة، وبجوة قلم قلل من (كمال) الكاثوليكية لأنها مقترنة بالتجزئة السياسية، ورفع من شأن الأرثوذكسية كدين كامل لأنه دين الإمبراطورية، ولم يحدد لنا موقع الإسلام من زاوية النقص والكمال. ولكن يكفي أنه قرنه بالتجارة، هذا العامل الذي اعتبره هشاً، ليعطيه ضمناً طابع الدين الوسط بين كمال الأرثوذكسية ونقص الكاثوليكية. ولن يبقى عليه إلا القول: مع انهيار فاعلية التجارة سينهار الإسلام، كما طبق هذا الحكم على الأمة العربية!

7 - لا يمكن تصور السهولة التي تم فيها الفتح دون ملامسة أهمية العامل الديني الإسلامي، الذي حمل معه إلى هذه الشعوب القرآن الكريم كتاب الله، باللغة العربية. فامتزج التعريب، إلى حد كبير، بالأسلمة. مع الفتح ترافق التعريب مع الأسلمة، إذ لم ينشر العرب قادة الفتح في البلاد المفتوحة الإسلام فحسب، بل اللغة العربية، وكوّنوا عبر تلاقح ثقافي واسع النطاق ثقافة عربية إسلامية، فاندمجت الشعوب العربية الحالية في مجرى التعريب، الذي لن يقطعه أبداً - على عكس ما يقول أمين - التمزق الجزئي الذي أصاب الدولة العربية الإسلامية في فترات مختلفة بدءاً من القرن التاسع⁽¹⁾. إذ تحولت اللغة العربية بسرعة لتصبح لغة الإدارة، والثقافة السائدة، ومن ثم لغة الحياة اليومية للسكان. ولم يؤثر في هذا الميل الانحدار السياسي الرهيب الذي أصاب موقع العرب في العهد المملوكي الذي امتد ثلاثة قرون، وفي ظل الدولة العثمانية التي استمرت أربعة قرون متتالية، وعندما بدأت محاولة التتريك المرافقة لانبعث الطورانية، ردت عليها رياح القومية العربية بالهبوب للإمساك الذاتي بمصير العرب بعد انكشاف عجز الأتراك عن حمايته وتواطؤهم أحياناً.

7 - ارتبطت عملية التعريب وتمثل الشعوب في البوتقة العربية بالأرضية التاريخية التي خلقتها مركزية الحياة السياسية، أي بالدور الذي لعبته الدولة العربية - الإسلامية بطبقتها القائدة العربية الأموية، والعباسية. على خلاف ما يقوله سمير أمين أنّ السيادة العربية لم تدم أكثر من قرنين، فقد بقي العرب الطبقة الحاكمة السائدة لأكثر من ثلاثة قرون، ظلوا شعباً حاكماً بدون منازع حتى نهاية العهد الأموي (750)، وظلوا بمثابة قمة النخبة الحاكمة، والعنصر

(1) راجع: أميل توما، الأمة، المسألة القومية، الوحدة العربية، الماركسية. مصدر سابق، ص 124. حيث يقول: «حيث قامت الإمبراطورية العربية الإسلامية هاجرت القبائل العربية، إلى عدد من الولايات واستقرت فيها وأدى شيوع الإسلام إلى تحطيم الحواجز بين المواطنين الأصليين والعرب الوافدين، مما سرّع في عملية الاندماج. وكانت حصيلة التطور التاريخي في الولايات التي غمرتها الهجرة العربية انتشار اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية مما أدى مع الزمن إلى نشوء ملامح قومية مشتركة».

المهيمن ثقافياً طوال العهد العباسي. فوجود الفرس والأتراك بجانبهم لم يؤثر على موقعهم المهيمن على الدولة والمجتمع، ولم تَخْبُ هيمتهم الثقافية - اللغوية، بل تعززت مع الزمن، ومع اختلاف العهود⁽¹⁾.

8 - سهّلت التجارة الدولية والداخلية والطابع المدني للحضارة العربية من سرعة الاندماج والانصهار في مجرى التعريب، ولكننا لا نستطيع فهم هذا العامل إذا عزلناه عن العوامل التوحيدية الأخرى كما يفعل سمير أمين، إثر طغيان الميول التوحيدية على المنطقة العربية على اقتصادها السياسي وبالعكس. ساهمت خطوط التجارة الدولية بازدهار المدن، وأكدت على الضرورة التاريخية للتوحيد السياسي، بنفس الوقت الذي أعطت زخماً قوياً لحركة الاندماج العروبي. إذ غدت الرقعة التي طالها، ووَحّدها الفتح كبرزخ يصل منطقتين اقتصاديتين كبيرتين، منطقة المحيط الهندي، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. هاتان المنطقتان اللتان توحدتا مع العهد الهلينستي، ثم انفصلتا إلى عالمين متنافسين: الروماني البيزنطي - الساساني ستحدان مع الفتح العربي الإسلامي في منطقة جديدة تركز على دائرة واسعة من العلاقات التجارية، بواسطة الطرق القوافلية والبحرية، تعتمد الدينار العربي كعملة سائدة، وعلى لغة تجارية غدت عالمية، العربية، وستتقوى هذه الوحدة بإدخال أسواق المغرب العربي بمدنها المكوّنة بعد الفتح (القيروان، فاس) في العملية التجارية تلك. إن المدن المكونة بعد الفتح أو التي دفعها العهد الجديد نحو الازدهار ربطت فيما بينها التجارة، وشكلت معها قاعة ازدهار للمدينة العربية «إن إقامة أو إنعاش شبكة مدن لا تلبث أن تمتد من مدينة إلى أخرى، التي أصبحت، فضلاً عن ذلك، النقاط القوية والمراكز المحركة للحياة الاقتصادية، أولوية المدينة في العالم الإسلامي من القرن الثامن إلى

(1) راجع: كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. مجلد أول، مرجع سابق، ص 79 «أجل لقد ظفر الخراسانيون - أو الموالي الفرس عامة، بحق المساواة مع العرب حتى زال من الاستعمال (مولى) بالذات لأنها لم تعد تنطبق على أي واقع ملموس، لكن العرب ظلوا الكثرة السائدة في أقطارهم، كما ظلت الأسرة الحاكمة العربية عريقة المحتد لأنها من سلالة الرسول».

القرن الحادي عشر تشكل ثابتة كبيرة⁽¹⁾.

انطلاقاً من المدن، مركز رجال الفتح - الإداري العسكري - والتجارة والثقافة، ستندفع الأسلمة والتعريب معاً ومنها ستستباح باتجاه العمق الفلاحي. فإن شكل الدين الإسلامي ومعه لغة القرآن الكريم العربية السند الأيديولوجي للتوحيد السياسي ولاندماج الجماعة العربية، فالتجارة مع المدن العامرة والزراعة المزدهرة غدت قاعدة لوعي ضرورة الوحدة أو لاستمرارها. في عهد عبد الملك (685 - 705) أصبحت العربية لغة الإدارة وتم تعريب العملة، ولم ينته العهد الأموي حتى تعربت المدينة عموماً وبُدىء بالأرياف. في العهد العباسي تعربت الأرياف عن طريق الأسلمة، أو عن طريق استقرار القبائل العربية في الريف، وخاصة بعد أن أسقطهم المعتصم من ديوان الجند، أو عن طريق هجرة الريف إلى المدينة. لم يكن مصدر تفرد - أمين - إعلاؤه شأن التجارة في المدينة العربية، فهذا ما شاركه فيه الكثير من الباحثين كما قلنا إنما تفرّده، ومصدر نقدنا له ناتج عن اعتباره إياه العامل المقرر الوحيد لوجود الأمة العربية أو لتلاشيها. بدل أن يضعه ضمن تقاطع عوامل عدة مختلفة أدت إلى ما أدت إليه، وفي الإطار ذاته الذي خلّصنا إليه.

منذ القرن التاسع ستكون الأمة العربية موجودةً بميزات الجوهريّة الحالية. ثم

(1) بهذا الصدد يقول منير شفيق في (الوحدة والتجزئة ص 32، مرجع سابق): «إن التجارة وتأمين الطرق التجارية هما الجانبان الأكثر أهمية في البناء التحتي للحياة الاقتصادية في هذه المنطقة. وقد لعب دور القيادة بالنسبة لأنماط الإنتاج التي عرفتها تاريخياً مناطق هذه البلاد، وهذا ما جعل دور التجارة أهم من دور ملاك الأرض، أو العبيد، وجعل العسكر هو الأساس في البنية السياسية للدولة - ثم جعل ما تحكم في تاريخ هذه المنطقة هو القوى العسكرية التجارية وطرق التجارة» كما يشير تيزيني إلى حقيقة أن مركزية الدولة العربية تتوافق وخط تطور وازدهار التجارة الدولية، ومصالح التجار وسكان المدن. أما التجزئة فتتوافق مع خط الانحطاط الإقطاعي». راجع الجزء الأول من التراث إلى الثورة من (ص 3 إلى 39). راجع لنفس المؤلف مشروع رؤية جديدة... مصدر سابق (ص 176) كما يؤكد لومبار في (الإسلام في عظمته الأولى) ص 135: «التجار هم معتمدو الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي».

إنَّ التطور اللاحق بكل مستوياته لن يزيدها إلاَّ انصهاراً أو تخلخلاً تبعاً للظروف التاريخية التي تمر بها، إلا أن هذا التطور لن يمس ما هو جوهري من علائم موحدة في هذه الأمة: الثقافة المشتركة والطابع النفسي الواحد، والحلم الدائم، والصبوات الدائمة بعودة الوحدة السياسية المُفتَقدة للأمة، والأرض المشتركة التي ترك التاريخ لها في كل موقع ذكريات مشتركة تغذي المشاعر الوجدانية نفسها لأفراد الأمة على مر الزمان، من مكة إلى المدينة، ومن الكوفة والبصرة إلى بغداد، ومن اليرموك وحطين إلى دمشق والقادسية، والأزهر والقاهرة، والقيروان، وفاس، وعين جالوت، وحطين... إلخ كلها مواقع في الأرض كما في الوجدان الفردي والذاكرة الجمعية تؤكد الرابطة العميقة التي تشد عرى الأمة بعضها لبعض.

8 - لن نفاجأ من أمين، بعد ما أرجع وجود الأمة العربية لفاعلية التجارة، أو لمركزية الدولة، أن يؤكد أن الأمة العربية ستزول بزوال العامل الذي أوجدها، «فما كان يوحد العالم العربي كان يسبب سرعة عطبه، يكفي أن تنهار التجارة حتى تزول الدول والمدن»⁽¹⁾. وتبعاً لأطروحته التي تذكر أن القومية تابعة للدولة، وهي ظاهرة قابلة للعكس من حيث الوجود أي تختفي تبعاً لوجود وعدم وجود «طبقة اجتماعية تراقب الجهاز المركزي للدولة، وتؤمن وحدة اقتصادية لهذه الجماعة»⁽²⁾ يذهب إلى أن العالم العربي لم يكوّن هويةً سياسيةً موحدة نسبياً مركزة الإخلال فترة قصيرة جداً من تاريخه «خلال قرنين»⁽³⁾ وبالتالي «لم يشكل العالم العربي بهذا المعنى أمةً إلاَّ في لحظات قصيرة من تاريخه»⁽⁴⁾.

لا يكتفي سمير أمين بوضع مركز الثقل في تكوين الأمة العربية على الدولة والطبقة المشرفة عليها مرة، وعلى التجارة وطبقة التجار مرة أخرى، ولكنه في المحصلة يذهب أبعد من ذلك عندما يحيل الأمة العربية إلى ظلٍ لهذين العاملين

(1) سمير أمين، الأمة العربية. مصدر سابق، ص 33.

(2) المصدر السابق، ص 138 - 139.

(3) التطور اللامتكافئ، مصدر سابق، ص 33.

(4) الأمة العربية، مصدر سابق، ص 139.

في حالتني الغياب والوجود. فتحول الأمة العربية إلى نوع من الأثر الثانوي والتابع للجسد السياسي الخاص، أو للفاعلية الاقتصادية الخاصة، يصبح الزمان الثقافي - النفسي التاريخي العميق للأمة تابعاً وظلاً للعامل السياسي الدولة أو للفاعلية الاقتصادية (التجارة). حتى لو سلمنا، جدلاً، بالعلاقة السببية الأحادية التي ربط بها - أمين - الأمة العربية بالدولة، أو بالطبقة التجارية، لكننا، إذن، أمام أفقر تصور يمكن أن تصله العلاقة السببية. فهل النتائج الاجتماعية تختفي باختفاء مسبباتها؟ أم أن الواقع الجديد (النتيجة) سيخضع لمسببات ولعوامل أخرى فور وجوده، وباستقلال عن أسبابه الأولى؟ إذا تركنا جانباً منطقية أقواله وأخذنا الأمر بكلية الواقعية، فإننا لتساءل كيف يمكن التسليم بتساوي الزمن الثقافي اللغوي، النفسي التاريخي مع الزمن السياسي، أو بزمن فاعلية اقتصادية من نوع خاص؟! إن أمين يتجاهل أن الأمة منذ أن توجد يصبح وجودها هذا غير قابل للارتداد. لم نسمع بأمة في التاريخ اندثرت، طالما مراكزها الروحية: الثقافية واللغوية، وذاكرتها الشعبية المجسدة في فلكلورها وحكاياها، والذاكرة التاريخية لزمن الأمة باق. والحال أن الأمة العربية لم يبطل وجودها أو يضعف بانقسام الدولة العربية، وأن انحسار سلطة بني العباس لم يأت على الثقافة والحضارة العربية، ولا على السبل المتنوعة للاندماج في البوتقة العربية كما يدعي (الأمين)، بل الواقع يثبت العكس، فإن كان القرن الثاني للهجري يسمى بحق (عصر التدوين) ففي القرنان الثالث والرابع الهجري (حادي عشر ميلادي)، تنبسط الثقافة العربية والتأليف العربي فيهما بالغاً الأوج، فالدول التي انشقت عن الخلافة العباسية تدخل في تنافس مع مركز الخلافة على رعاية الثقافة والآداب والعمران العربي. هذا ما جرى في الدولة الطولونية، والفاطمية في مصر، ومع الأغالبة والأدارسة، والموحدين والمرابطين في المغرب، وهذا ما جرى مع الحمدانيين في بلاد الشام، لم تتوقف ينابيع الثقافة العربية الإسلامية الواحدة في التدفق بل زادت ازدهاراً ووحدة وفي كل الاتجاهات، ولم يتوقف التلاقح والانسياب والتمازج الثقافي، كما السكاني على الأرض العربية بحيث لا يمكن فصل الساحة الثقافية في بغداد عن دمشق والقاهرة

والقيروان وحتى طليطلة، وقرطبة في الأندلس.

لم تتوقف حركة الانصهار في تيار العروبة منذ دخول تلك الشعوب ظل الدولة العربية الإسلامية بل خاضت الفرق المذهبية جميعاً صراعها على شرعية الانتساب إلى الإسلام الأول، والصراع السياسي الذي موضوعه الدولة (الإمامة والخلافة) لم تقتصر ساحته على الجزيرة العربية، فتعدها ليشمل الأرض العربية حتى جبال الأوراس، خاض البربر، الذين تصدوا للفتح في البداية، المعارك بعدها تحت راية الخوارج، مندفعين باتجاه الأسلمة والتعريب. في نهاية القرن التاسع ستكون المنطقة العربية قد تلونت بالصبغة العربية ولن يؤثر على هذا الحال، لا الانقسامات الجزئية التي أصابت الدولة العباسية، ولا إمساك المماليك اللاحق بالسلطة منذ القرن الحادي عشر، لأن عملية تبلور الوجود القومي للأمة العربية قد وصلت إلى حد لم يعد بالإمكان العودة عنه. حتى القوى الحاكمة الجديدة المملوكية سيجذبها التعريب أحياناً «ويلاحظ أنه على الرغم من الاحتلال العثماني فإن الكتابات لم تدخل تعلم اللغة التركية، بل الأغرب من هذا أنها في بلاد الأناضول نفسها كانت تقتصر في عملها على تعليم القرآن بلغته الأصلية بالطبع، وتحفظه الطلاب دون أن تفقه معانيه»⁽¹⁾.

طوال عهد المماليك، الذين سيطروا على الجزء الأكبر من العالم العربي، ظلت العربية اللغة السائدة، والثقافة السائدة، ولغة الحياة اليومية كما لغة الحكام أحياناً. والأتراك العثمانيون الذين خلفوهم لم يتسربوا كشعب، عن طريق الهجرات، إلا نادراً في المناطق العربية، ولم يفرضوا لغتهم، وبقي الشعب العربي محافظاً على هويته القومية: لغة وثقافة وطابع نفسي وأرض ظلت مفتوحة أمام انسياب الأفكار، والتنقل السكاني، والتدفق التجاري على ضعفه، مشبعة بالذكريات القومية الواحدة.

(1) الدكتورة ليلى صباغ: المجتمع السوري في مطلع العهد العثماني. وزارة الثقافة، دمشق،

إن سيطرة المماليك على أغلب الأرض العربية، والعثمانيين على مجملها تقريباً أمّن وحدة الشعب العربي السياسية، وإن في ظل سيادة غير عربية.

بقاء التوجه نحو الوحدة، في ظل سلطة مركزية (استرجاع الخلافة)، ظل يمثل الميل الغالب للتاريخ السياسي للعرب، مما ساهم في توطن وترسخ عوامل الوحدة على عوامل الفرقة داخل الأمة، ولن يضعف من قوة هذه الحقيقة الانقسامات المتعاقبة، فحتى هذه الانقسامات التي ظهرت منذ القرن التاسع لم تطرح نفسها كقوة انفصالية فتفقد بالتالي شرعيتها إنما كمشروع وحدوي بديل عن الدولة المركزية العباسية باعتبارها شرطاً لكسب الشرعية اللازمة. هذا ما جرى مع الفاطميين الذين أطاحوا بالأغلبة في المغرب (909) وانداحوا باتجاه الشرق لمد رقعة سلطانهم، لم يكتفوا بمصر (969) بل استمروا باندفاعهم فدخلوا فلسطين، وطرقوا أبواب دمشق، وأنطاكية، لم يثنهم عن استكمال توحيدهم العرب، وربما المسلمين تحت هيمنتهم السياسية والأيدولوجية غير بروز تحدي القرامطة، وبرز دور السلاجقة في الشرق الداعم للخلافة العباسية، اقتلع السلاجقة السيطرة الفاطمية من بلاد الشام بعد أن قضوا على الدولة القرمطية في جنوب الجزيرة العربية.

لم تمنع الخلافات القائمة بين الفاطميين والسلاجقة الموالين للعباسيين الخليفة الفاطمي (العاقد) من طلب العون منهم لرد الخطر الصليبي الذي اجتاحت المنطقة منذ القرن الحادي عشر، ولم يتردد نور الدين زنكي في إرسال جيش قوي بقيادة (أسد الدين شيركوه) وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي لنجدة مصر الفاطمية.

توحدت معظم البلاد العربية، من جديد، تحت سلطة الأيوبيين، صار صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر (1171) وضم بلاد الشام إلى سلطانه، وبعد معركة حطين (1187) عادت معظم البلاد العربية تحت سلطة مركزية واحدة يقودها الأيوبيون. وكانت معركة (عين جالوت) التي قادها (قطز) ذروة مجد العهد المملوكي. وبقيت السيطرة المملوكية على نواة الأرض العربية (مصر والشام) ثلاثة قرون، وستقع أغلب أصقاع العرب

تحت السيطرة العثمانية لأربعة قرون. خضوع العرب أو في معظمهم لسلطة واحدة، المماليك، ثم العثمانيين، وإن كان قد ساهم في إضعافهم على المدى الطويل، إلا أنه أَمَّنَ لهم الاستقرار ودوام الوحدة في ظل سلطة أجنبية يشتركون معها في وحدة العقيدة التي كانت ملاط الدولة، وملاط البناء الاجتماعي إلى حد كبير. والعثمانيون اكتفوا بتحصيل المزاج والسيطرة السياسية العسكرية وتركوا المجتمع الأهلي يُدار تبعاً لقوانينه المحلية، المستقاة من الإسلام ومن قوة الحياة، وفي كنف لغته وثقافته العربية⁽¹⁾.

10 - إن خضوع العالم العربي لنفس العوامل المحيطة بعملية الاندماج في البوتقة العربية، لا يمحو تمايز الطرق التي تعرضت لها تلك الأقطار والشعوب في سير عملية التوحيد والاندماج. إن الدور الذي لعبه الإسلام ولغة كتابة المقدس القرآن الكريم، ودور الاختلاطات السكانية، واللغوية القديمة السابقة للفتح، وطبيعة الأرض العربية المفتوحة على بعضها والمشجعة للترحال والتواصل، ودور الطبقة الحاكمة العربية المهيمنة سياسياً وثقافياً، واستمرار ميول التوحيد السياسي، بالإضافة إلى دور التجارة الدولية والطابع المدني للحضارة العربية، هي أدوار ظاهرة للعيان عند تفسير واقع الاندماج العربي، وبروز الأمة العربية إلى الوجود.

11 - في تعرضه لبلاد الشام وما بين النهرين يتغافل سمير أمين عن عمق الصلات العربية بها، وعن عمق القرابة اللغوية والسكانية، مكتفياً بملاحظة ما بينها من تقارب في التشكيلات الاجتماعية «لم يشعر العرب فيها بالكثير

(1) أنظر الدكتور توفيق برو، القومية العربية، القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة، دمشق (ص 10)، حيث يقول: «إن العثمانيين لم يفرضوا على الولايات الجديدة التي دخلت في حوزتهم، أثناء توسعهم في آسيا الصغرى والولايات العربية، وبقية الأقطار الأوروبية القوانين والأنظمة العثمانية الصرفة، بل كانوا يكتفون بعد إخضاعهم السكان، بفرض سيطرتهم العسكرية والسياسية عليهم، ويتركون لهم مؤسساتهم القديمة، وحرية الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم».

من الغربية، لأن مجتمعات الشرق القديمة كانت كمجتمعاتهم، مجتمعات تجارية وسيطة⁽¹⁾. وعندما يستدرك لاحقاً، منتبهاً إلى القرابة اللغوية والإثنية «لقد كانت المنطقة (الهلال الخصيب) معتادة دائماً على لغة صريحة، كانت الآرامية قد وُحِّدَتْهم قبل الفتح الإسلامي. وبما أن هذه اللغة سامية فقد توارت عن الساحة لصالح اللغة العربية دون صعوبة تذكر»⁽²⁾ فإنه لا يقول ذلك إلا ليؤكد بقاء انفصال الريف عن تيار الحضارة العربية. «فالأرياف بقيت خلال اثنا عشر قرناً منعزلة الواحدة عن الأخرى.. لقد كانت الأقاليم الريفية حقاً في المشرق، وحدها، استقلالية حتى العظم، من وجهة النظر الدينية»⁽³⁾. والحال أنه منذ القرن الثالث قبل الميلاد وشعوب هذه المنطقة تتخاطب باللغة الآرامية، بعد غزو الإسكندر لها (القرن الثالث ق.م) غدت اللغة اليونانية لغة الثقافة والإدارة، ولكنها لم تطال عامة الشعب التي بقيت بمجملها آرامية اللغة، على الرغم من امتداد الهلينسية ألف عام⁽⁴⁾.

منذ القدم وبلاد الشام والعراق تستقبل الهجرات العربية من جزيرتهم، فكانت سورية الرومانية مأهولة جزئياً بالعرب، لذا فليس مثيراً للعجب أن يصبح «فيليب العربي» من شهباء، حوران، إمبراطوراً رومانياً أعوام (244 - 249). في القرن السابع قبل الميلاد، وإلى الشرق والجنوب من البحر الميت، أسست قبائل عربية مملكة الأنباط، التي تُدعى في أعمال الرسل (بدولة العرب) كانت الآرامية والإغريقية لغتين رسميتين لكن عامة الشعب ظلت عربية⁽⁵⁾. كما كانت هناك بعض

(1) الأمة العربية، مصدر سابق، ص 18.

(2) المصدر السابق، ص 22. راجع أيضاً التطور اللامتكافى، ص 36.

(3) الأمة العربية، مصدر سابق، ص 23.

(4) راجع مكسيم رودنسون، العرب. مخطوط المترجم نادر ذكرى. الفصل الثاني، المطابع الجامعية الفرنسية 1979. وراجع لومبار، الإسلام في عظمته الأولى، ص 82: «قبل الفتح العربي، اللغات الرسمية هي اليونانية في سوريا البيزنطية، والبهلوية في ما بين النهرين، لكن الآرامية في كلاهما... لغة الكلام الحية».

(5) مكسيم رودنسون، العرب، فصل ثاني، مصدر سابق.

الممالك الحدودية ذات أصل عربي واضح: الغساسنة، التدمريون، الحيرة. العرب هؤلاء، على الرغم من نصرانيتهم أشركهم عمر بن الخطاب في جيش الفتح⁽¹⁾. وكانت القبائل العربية قبل الإسلام تضغط باستمرار باتجاه الشمال، فانتشرت إلى الجزيرة الفراتية، منذ الألف الأول قبل الميلاد واستمر بعضها بدوياً يعيش على الرعي وتربية المواشي، بينما استقر البعض الآخر في القرى وخاصة تنوخ وربيعة. . وهناك قبائل أخرى جاءت منطقة الفرات الأوسط والأسفل مثل أباد وتغلب، بينما نزلت تنوخ والعباد والأحلاف في الحيرة، وهي في الغالب يمانية. وما أن جاء القرن السابع الميلادي حتى كانت الأراضي على الفرات الأوسط والأسفل وأجزاء من الجزيرة الفراتية قد تعربت بصورة واسعة⁽²⁾.

في الشام، انتشرت القبائل العربية قبل الإسلام بصورة أوسع وأكثر، وكانوا في عامتهم يمانية. وقد انتشرت في المناطق المجاورة لبادية الشام، وعلى شكل قوس يمتد من أيلة وجنوب فلسطين باتجاه الشرق والشمال الشرقي للبلاد. فكانت غسان في منطقتي دمشق وحوران، وقضاة في البلقاء، وإلى الجنوب الشرقي من الأردن، وتنوخ وطي وسليم بجوار حلب وقنسرين، ولخم وجذام في فلسطين، بينما كانت كلب في تدمر وفي البادية جنوب شرقي الشام. ثم جاءت مجموعات قبلية جديدة مع الفتح وبعده. وقد كانت عامة الفلاحين في بلاد الشام والعراق من أصول ترجع إلى الجزيرة العربية. وفي بلاد الشام كانت الحركة نحو الانتشار في الأرياف، والسكن في القرى أكثر اتساعاً بعد سقوط الأمويين⁽³⁾. إن العرب لم

(1) حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، جزء أول، مصدر سابق، ص 423. يقول: «وقد يشمل نظام عمر تلك السياسة التي اتبعتها في خلافته تجاه المسيحيين العرب سكان سورية وفلسطين والعراق. فهو - أولاً - أمر أن تفرض عليهم أثقل الضرائب لدفعهم بذلك لدخول الإسلام، معللاً هذا تعليلاً يلفت النظر بقوله: إن هؤلاء عرب وإن العرب هم جيش الإسلام. وهو ثانياً أباح لهؤلاء المسيحيين في حين لم يبيح لغير المسلمين من أهل البلاد المفتوحة، أن يُستعملوا في هذا الجيش».

(2) راجع: عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، مصدر سابق، ص 58.

(3) المصدر السابق، ص 61.

يشعروا بالغربة في بلاد الشام والعراق . نعم، ولكن لا بسبب القرابة في التشكيلات الاجتماعية - التي أشار إليها أمين - بل بالأساس للقرابة اللغوية الواضحة التي تربطهم ببعض منذ القدم، وللاختلاط السكاني والقرابة الإثنية التي تذهب بعيداً في التاريخ .

لم يبدع السكان المدنيون في خط العربية، بل أيضاً الريف والبادية . تعرب الهلال الخصيب بسرعة جليلة، ساعده في ذلك كون القاع السكاني سامي اللغة (الآرامية) التي هي على قرابة مع اللغة العربية . إن اللغة السامية تركز على أرومتين لغويتين: الآرامية بالنسبة لسوريا وما بين النهرين، والعربية بالنسبة للجزيرة العربية، فضلاً عن العلاقة الوثيقة بينهما «اللغتين تملكان بنية صداقية مشتركة . ثلاثية الجذور وإمالات صوتية غير مرسومة، ونفس الأبجدية الأساسية المتحررة (مشتقة) من الأبجدية الفينيقية القديمة . في المواجهة بين اللغتين، العربية، محمولة على اندفاع الغزو (الفتح) ستخرج ظافرة، بسرعة شديدة . منذ بدايات القرن التاسع، العالم الآرامي . . . يتكلم اللغة العربية في مجموع عالمه القديم، عالم سوريا وما بين النهرين»⁽¹⁾ لم تستقل الأرياف الشامية ولا أرياف بلاد ما بين النهرين، لا عن خط التعريب ولا بإسلامها الخاص، فعلى النقيض من المعلومات المجافية للواقع والحقيقة التي قدمها أمين، حافظ الريف الشامي بأكثريته الغالبة على إسلامه الأرثوذكسي السني، وتناصف الأمر في ريف ما بين النهرين ولم يخضع لهذه الخصوصية المزعومة .

12 - المغرب العربي : في الطرف الآخر من العالم العربي لن يجد سمي أمين سوى «البنات نفسها التي وجدها في المشرق، . . العرب واجهوا من المزارعين المقاومة . . فاكثفوا بمحاوطة هذه المناطق، وبناء المدن الجديدة في السهول، هذه المدن كما في الشرق لم يكن في مقدورها أن تزدهر وتستمر لو لم تكن قد وجدت في التجارة البعيدة الموارد التي كان من الصعب اقتطاعها من المزارعين . . . البدو الرحل سيتعربون بسرعة أكبر بكثير من الفلاحين الذين لم يعطوا إلا اهتماماً ضئيلاً

(1) موريس لومبار، الإسلام في عظمته الأولى، مصدر سابق، ص 39.

للحضارة العربية المدنية⁽¹⁾. ثم راجعاً إلى إيف لاکوست، وابن خلدون يقرر «يشكل حلف المدينة - الرحل مع حذف الفلاحين من الدولة المنتصرة الخبرة الأساسية للحضارة العربية. كما هو الحال في الهلال الخصيب»⁽²⁾. مؤكداً من جهة أخرى على واقعة خاطئة: «كما هو الحال في المشرق العربي حيث حاول الفلاحون - المعربون لغوياً - الحفاظ على استقلالهم الذاتي عن طريق التمايز الديني، فإن صيانة اللغة والثقافة البربرية، في المغرب هي التي ستجد هذه المقاومة»⁽³⁾. ثم يشير إلى أن العرب التفوا حول السلاسل الجبلية، ملجأً الفلاحين، وأسسوا المدن، وإن كل الدول المغربية الكبرى تأسست بسرعة على قاعدة تجارة الذهب⁽⁴⁾. مرةً أخرى، نجد هنا مع سمير أمين نفس الأخطاء التي واجهناها من قبل في تحليله لتاريخية الاندماج والتماثل العربيين لعرب المشرق، فمن تركيزه على سلطة التجارة - البدو، وغمطه الطابع الفلاحي للمغرب، إلى استصغار عامل الدين الإسلامي، ولغة الكتاب المقدس، وتجاهل عمق الاختلاط السكاني، اللغوي السابق للفتح. إن كل هذه العوامل المؤثرة يختزلها ويغيّبها ليرينا المغرب والمشرق تحت تأثير رافعة التجارة فقط، وغلبة البدو، بالإضافة إلى اختراعه لعزلة الريف، حيث يجد تيار العربية مركزاً في المدينة.

فإذا أردنا تقصي الوقائع الفعلية وجب أن نلاحظ اندفاع المغرب العربي نحو الانصهار في البوتقة العربية مع الفتح. وكما في البلدان الأخرى ترافقت الأسلمة مع التعريب، وإن بصورة غير موازية تماماً. سبقت المدن الأرياف والأرياف قبائل الصحراء والبدو على عكس ما يقوله أمين. وعلى الرغم من الغزوات المتتالية التي شهدتها المغرب العربي: الفينيقيين، الروم، والفيندال، والبيزنطيين، ظلت اللغة السائدة المحلية هي اللغة البربرية التي لم تدوّن كتابياً. تأثر سكان

(1) سمير أمين، التطور اللامتكافى، مصدر سابق، ص 37.

(2) راجع: سمير أمين، التطور اللامتكافى، ص 38، وأيضاً الأمة العربية، ص 26.

(3) سمير أمين، التطور اللامتكافى، ص 38.

(4) الأمة العربية، مصدر سابق، ص 25.

الشمال فقط باللغة الفينيقية (الآرامية) التي سهلت لاحقاً الاندماج باللغة العربية القريبة منها. واقتصرت تأثير اللاتينية على لغة الثقافة في مناطق سيطرتهم شمالاً، وفي المدن تحديداً.

اقتصرت سيطرة الغزاة على المنطقة السهلية المحاذية للبحر المتوسط والمناطق الجبلية المطلة عليها في الغالب، وظلت الصحراء المغربية الواسعة منفصلة عن المناطق الساحلية. صارت بمثابة الملجأ ينكفئ إليه السكان هرباً من الغزوات الخارجية، أو انتظاراً للانقضاء على المحتل. لم تتحد أجزاء المغرب العربي، بصحرائه، وجباله وسهله الساحلي، تحت سلطة واحدة، إلا مع الفتح العربي الإسلامي، والصحراء التي كانت قبل السيطرة العربية بمثابة متاهة أو ملجأ ستصبح برزخاً يصل أفريقيا والسودان والمغرب⁽¹⁾ يغذي العمران والمدينة والحضارة. تقدم الفاتحون العرب عام (647) ابتداءً من منطقة السيطرة البيزنطية التي كانت تشتعل بالانشقاقات الدينية، واكتفوا هذه المرة بأخذ الجزية. في عهد معاوية (660) اندفع الجيش العربي مرة ثانية بقيادة معاوية بن هديج نحو مدن الشمال. الفتح الحقيقي سيتم عام (670) مع عقبة بن نافع مسيطراً على تونس، وفي نجد واسع سيؤسس مدينة القيروان لتكون قاعدة لحملاته ولحكمه الذي لن يستقر إلا مع إمارة حسان بن النعمان الغساني (693 - 699). منذ حملة غسان بن النعمان تبدأ الاختلاطات الكبرى بين العرب والبربر. اندفعت الهجرة العربية باتجاه المغرب لنشر الإسلام أو طلباً للمعاش. في حين سُنقل ثلاثماية الف بربري إلى آسيا العربية⁽²⁾ تماثل الطباع (البدواة)، وأسلوب المعاش، سرع عملية التمثل، فصار البربر دعامة الإسلام وللسلطة العربية. فلن يكون غريباً وجود (طارق بن زياد) البربري على رأس الحملة على إسبانيا.

(1) عبد الله العروي، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 74.

(2) ل.أ. سيدو، تاريخ العرب المطول، ترجمة عادل زعير، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، 1948، ص 180.

المغرب العربي ستكون له مكانة استراتيجية هامة في الدولة العربية الإسلامية. قدمت كصلة وصل بين الأمبراطورية العربية وإسبانيا من جهة، وصدرًا استراتيجيًا يحمي الأندلس والبحر المتوسط، والجناح الغربي للأمة العربية في مواجهة الغرب، وطريقًا استراتيجيًا للخط التجاري الذاهب باتجاه السودان، وهكذا دخل المغرب الذي كان في حالة تفهقر وتمزق، في التيارات العامة للاقتصاد الدولي، وانتهت عزلة الصحراء عن بقية المغرب والعالم، وأصابتها اندفاع مدينية كبرى: تاهرت - الزاب - سجلماسة على الطريق التجاري الذاهب إلى السودان لجلب الذهب والرقيق.

عملية التحول إلى العربية بدأت في المدن، تبعاً لنفس الخط الذي سارت عليه في المشرق ومصر، من القيروان مركز الفتح، ومن المدن الأخرى: فاس التي يؤسسها العرب، سيتعزز انتشار العربية، وانتشار لغة الفينيقيين (الآرامية) سيسهل ذلك. دوام سلطة الأغالبة العرب، الموالين للخلافة العباسية، منذ 800 إلى 951 على القسم الأعظم من بلاد المغرب سيقوي استمرار اندفاع التعريب، أسسوا مدناً: القصر، رقادة. وطوروا مدناً أخرى: تونس، طرابلس، القيروان التي أسسها عقبة بن نافع، وسهّلوا الصلات بين سكان الصحراء، وسكان الساحل، بما أوجدوه من طرق، ومستودعات مع الحماية، فانتقل السكان بسرعة مذهلة إلى العربية والإسلام⁽¹⁾.

استقلال الادارسة عام (805) في المغرب الأقصى، لم يحد من اندفاع الاسلامة أو التعريب. وُحد الادارسة ذوو البلاط العربي، المغرب الأقصى وإقليم المراعي - أي بين الحضارة والبداءة - تحت لواء امارتهم الشيعية بعد

(1) فيليب حتي، أدوار جرجي، جبرائيل جبور، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، 1953، ص 543: «وكان في زمن الأغالبة أن تم انتقال أفريقيا من بلد لاتيني اللغة، مسيحيي الدين في الغالب، إلى بلد عربي اللغة إسلامي الدين، وسقطت أفريقيا الشمالية اللاتينية التي هيأت للقديس أوغسطين ذلك المحيط الثقافي الذي نشأ فيه سقوطاً لا نهوض بعده. وهو انقلاب سريع تام ربما لم يكن له مثيل في جميع البلدان التي فتحها الإسلام».

أن كادت فتن الخوارج أن تمزقها. فكان لانتسابهم إلى سبط الرسول أثر كبير في توحيد القبائل، ولتأسيسهم مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ الثقافة العربية في المغرب الأقصى وغرب أفريقيا. عزلتهم عن الخلافة العباسية لم يقلل من دور مدارسها الهامة في نشر الثقافة العربية، واللغة العربية وإحلالها محل البربرية⁽¹⁾.

في القرن العاشر تبدأ مساهمة المغرب الفعالة في السياسة العربية - الإسلامية العامة. بتألق نجم الأندلس، واندماج بلاد المغرب مع مصر في ظل الخلافة الفاطمية الذي سيعزز من صهر المغرب أكثر من اللحمة العربية الإسلامية. في القرن الحادي عشر سيدفع الفاطميون قبائل بني سليم، وبني هلال، التي كانت متمركزة في مصر، إلى بلاد المغرب لمقاومة حركة ارتداد المغرب على السلطة الفاطمية. سيختلط هؤلاء بالسكان حاملين معهم لغة العرب وإسلامهم. وسينخرطون لاحقاً في جيوش الإمارات المتعاقبة على المغرب⁽²⁾.

توحيد المغرب بمجمله في ظل المرابطين، ثم الموحيدين حتى القرن الثالث عشر، سيكرس سيطرة الثقافة العربية الإسلامية. اقتلاع نصف مليون عربي من الأندلس بعد سقوطها، وهجرتهم الجماعية في القرن السادس عشر إلى المغرب، حيث سيلعب هؤلاء دوراً كبيراً على المستوى الثقافي العربي، شبيهاً بالدور الذي لعبه بنو هلال وبنو سليم على صعيد المؤسسة العسكرية.

بدأت سمات الانقسام السياسي بين أجزاء المغرب العربي الثلاث: تونس، الجزائر، مراكش بالظهور منذ القرن الثالث عشر بانحلال دولة الموحيدين، وتشكل دولة الحفصيين في تونس، وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط، وبنو مرين في المغرب الأقصى. لأن كلاً منها عجزت عن مدّ سيطرتها أكثر من ذلك. وبلغ التفكك ذروته في أوائل القرن السادس عشر، مما سهل على الغزاة الإسبان،

(1) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والعربية فيما يلي الصحراء، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العليا، 1957، ص 51. راجع أيضاً ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس. سلسلة الألف كتاب، مطبعة نهضة مصر، ص 38.

(2) راجع: عبد الله عروي، تاريخ المغرب، مصدر سابق، ص 149.

بعد اقتلاعهم العرب من الأندلس، الاستيلاء على بعض الموانئ المطلة على البحر المتوسط من بلاد المغرب. فكان مجيء العثمانيين إلى شمال إفريقيا العربية بمثابة نجدة انقذت بلاد المغرب العربي من الغزو الأوروبي. أو أجّله على الأقل ثلاثة قرون، وساعدت على توحيد البلاد سياسياً، كما أمنت نوع من الصلة الهشة مع الأجزاء العربية الأخرى⁽¹⁾. والتطور اللاحق لن ينال من حقيقة المغرب العربية التي أصبحت هويته القومية والتي لا يمكن الرجوع عنها على نقيض ما يزعمه أمين.

13 - مصر، أو الأمة الأبدية! : عند مصر سترك، مع أمين، وراءنا الممكن، لغة العالم الأرضي، لندخل محراب الأبدية، لغة القبة السماوية. متخفين من أثقال التاريخ إلى أجل لنلتقي بمأساة - ملهاة عرض أمين واستنتاجاته التي لا تختلف - من حيث النتيجة - عما تنشره النزعة الانعزالية المصرية بدءاً من لطفي السيد وانتهاءً بدعاة الانعزالية اليوم. وإن كانت هنا عنده ستلبس الأرجوان (البروليتاري). ثمة خطأ أساسي في منهج سمير أمين - كما يقول بو علي ياسين - هو أن يجعل من الاختلافات في الدرجة، اختلافات في النوع⁽²⁾. فإذا رأى التجارة البعيدة في الحضارة العربية بالنسبة لحضارات أخرى، حكم عليها بأنها حضارة تاجرة وإذا وجد الطابع الفلاحي للشعب المصري أقوى منه لدى الشعوب السامية العربية الأخرى، اعتبر الحضارة المصرية دون أخواتها حضارة زراعية فلاحية.

ومن القول عن مصر، أنها «أحد أقدم الشعوب الفلاحية في العالم» يذهب ليؤكد اختلافها النوعي عن المشرق والمغرب العربيين «وكان نموذج التشكيلات الاجتماعية في مصر يتكون على أساس مغاير لأسس التشكيلات في المشرق والمغرب» بل إن تاريخ مصر منذ الفتح العربي حتى نابليون لا يمكن فهمه - عند أمين - إن لم نفهم الجدل «بين استمراريته الفلاحية ودمجها العرضي في اقتصاد أوسع»⁽³⁾ نعم، ما هو فارق في

(1) الدكتور صلاح عقاد، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 3، ص 16.

(2) راجع: بو علي ياسين، رؤية سمير أمين للتاريخ العربي الاجتماعي الاقتصادي، مجلة الوحدة. السنة الرابعة، عدد 42، آذار 1988، ص 161.

(3) الأمة العربية، مصدر سابق، ص 29.

الدرجة يصبح فارقاً في النوع. لكن كيف يمكن تصور فصل مصر وتميزها عن الجسد العربي بتفرد مزعوم لطابعها الفلاحي؟!

إذا كان المشرق والمغرب يرتكزان على التجارة الدولية في تطورهما، ضمن عوامل أخرى، فمصر ليست بعيدة عن هذا الحال. فمن غزو الأحباش لليمن، مروراً بصراع المماليك في القرن الخامس عشر والسادس عشر للسيطرة على الطرق التجارية الدولية، وانتهاءً بفتح قناة السويس، إنما يشهد بذلك. وإن هذا الطابع التجاري لا يخفي السمة الفلاحية لأرض المشرق والمغرب، كما لأرض مصر. كيف استطاع إغماض العين عن غنى بلاد الرافدين الفلاحي، عن أقدم الحضارات الزراعية أو عن بلاد الشام التي تخترقها عشرات الأنهر، والأراضي الخصبة على امتداد ساحله، وأغواره، وسهوله الداخلية: العمق، الغاب، سهول حماة، وحمص، والبقاع، وغور الأردن، وسهول فلسطين، وسهول سد مأرب، إلا إذا كان ينطلق من افتراض خاطيء يقول: إن بلداً ما يعتبر زراعياً إن شقه نهر من إقصاء لأقصاء مثل نيل مصر.

كل المعلومات التي يوردها الأستاذ جورج زيدان تبرهن على أن الخراج المقتطع من الزراعة كان أهم مصادر الدولة العربية، وليس خراج التجارة العالمية. كذلك، فإن الخراج المقتطع من مصر، بالمقارنة مع مثيله في الولايات العربية الأخرى، لم يكن الخراج الأوفر والأغنى، بل بالعكس «لقد كان خراج مصر أيام المأمون يزيد ثلاثة أضعاف على خراج العام 1903، ومع ذلك كان أدنى من خراج عدد كبير من الأقاليم الأخرى: السودان، كور دجلة، ماها الكوفة والبصرة، الأهواز، الموصل وما يليها، الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات، أفريقيا في أيام المأمون (نقلاً عن ابن خلدون)، أو السودان في الطرق، ديار مصر، أعمال طريق الفرات أيام المعتصم (نقلاً عن قدامة بن جعفر)، ديار مصر، الموصل، ديار ربيعة، في أواسط الثالث الهجري (نقلاً عن ابن خرداذبة) بناء عليه - يقول بو علي ياسين بحق - لا يبدو أن التفريق بين نمط الإنتاج المصري ونمط الإنتاج العربي في القرون الوسطى يقوم على أساس متين، وتبرهن بالإضافة إلى ذلك، أية دراسة لعلاقات الإنتاج في ما بين النهرين وسواحل

الشام واليمن السعيد في العصرين القديم والوسيط أنها مماثلة لعلاقات الإنتاج في وادي النيل في تلك العصور، هذا إذا لم يضم الجميع دولة واحدة ونظام اجتماعي واحد⁽¹⁾.

إمعاناً منه في تمييز مصر عن عمقها العربي، وانطلاقاً من الافتراض الخاطيء طابعها الفلاحي، الاستثنائي، فإنه لا يفرق، إلا من حيث الدرجة، موقع مصر العربي عن موقعها في الأمبراطوريات الأخرى الخارجية. فهو يشير إلى أنها: منذ غزو الاسكندر، دخلت مصر كمقاطعة في أمبراطورية مؤسسة على التجارة الكبرى «ذلك كان موقعها في العالم الهليني ثم البيزنطي ثم في العالم العربي، نشهد في الحقب الزاهية من نمو هذه الأمبراطوريات، عندما تزدهر التجارة البعيدة، حضارة مدينية تجارية، لكن هذه الحضارة تبقى غريبة، مرساة في مدن بلاطات وتجار... بقي العالم الريفي المصري خارج هذه الانقلابات»⁽²⁾.

إن هذه المساواة بين حال مصر العربية وحالها مع الأمبراطوريات الأخرى إنما يجانب الحقيقة تماماً. فجوهر العلاقة التي حكمت مصر ومحيطها العربي هي الإنصهار، بينما علاقتها مع الأمبراطوريات الأخرى هي التجاور والتناوب والتعارض. لقد صارت مصر بمثابة القلب من العرب، لقد تمثلت الحضارة العربية بعد عملية الاندماج الشاملة. فكانت ولا زالت علاقتها مع العرب علاقة مماهة وتمائل، إلى درجة أن مصر تجاوزت في تمثلها الهوية العربية الإسلامية الأقطار العربية الأخرى، إن كان من حيث التجانس اللغوي أو الأقوامي، أو الثقافي والديني المذهبي، فصارت مصر من حيث درجة التجانس في المرتبة الأولى بين شقيقاتها العربيات في المشرق والمغرب. وأصبحت منذ القرن التاسع وما يليه حجر الزاوية للثقافة العربية الإسلامية.

لقد ظلت مصر أكثر من ألف عام قبل الفتح الإسلامي العربي منقسمة على نفسها حضارياً وثقافياً، إلى درجة أنه يمكن القول عن ثنائية قومية وثقافية، بين

(1) راجع: بو علي ياسين، رؤية سمير أمين... مصدر سابق، ص 160.

(2) الأمة العربية، مصدر سابق، ص 33.

المدينة اليونانية، والريف المصري. وليس عن قومية واحدة. توقف هذا مع الفتح، خرجت مصر منه موحدة تماماً من الرأس حتى أخمص القدم، من الوجه القبلي إلى الوجه البحري من المدينة إلى الريف في الهوية العربية، لم تتوحد مصر أبداً اتحاداً انصهارياً ثقافياً وقومياً إلا في إطار الأمة العربية، حيث ستصبح منها بموقع القلب. وعلى النقيض ما يدعيه أمين من جنو مصر الثقافي بعد الفتح. فإن «الدور الرئيسي الذي لعبته مصر في الثقافة العربية هو حدود الحارس، وهو أيضاً دورها السياسي والعسكري»⁽¹⁾ وإن ما قدمته خلال ألف عام من العصر الهليني لا شيء يذكر بما قدمته للثقافة العربية» الهام إلا ما قدمته الاسكندرية من الشعر اليوناني التقليدي، وبعض الفلسفة المدرسية، والاسكندرية مع هذا لا تكاد في ذلك الوقت تكون مصرية، فهي مدينة يونانية على ساحل مصر»⁽²⁾.

كانت اللغة المسيطرة، عند دخول الغرب، اللغة القبطية، مدونة حسب أبجدية يونانية مكيفة، وما لبثت اللغة العربية أن حلت محلها والعرب ما يزالون في عز سطوتهم وهيمنتهم على عكس ما يدعيه سمير أمين، إذ كما في بلاد الرافدين والشام، والمغرب، أقام العرب الفاتحون المدن الجديدة (الفسطاط) ونموا المدن القديمة، وما لبثت المدن أن ازدهرت بمجملها مع استقرار الحال وانتعاش خطوط التجارة الكبرى. مصر مثل البلدان الأخرى عندما تغلق على نفسها ستعتمد مجبراً على الأرض، ولكن منذ دخول الإسكندر إليها وانضمامها بعد ذلك إلى الإمبراطورية الرومانية صار للتجارة الدولية دور هام في حياتها الاقتصادية، وقد تعزز هذا الدور في إطار الدولة العربية الإسلامية، مما نمى مدنها وزادها ازدهاراً. فإن بقي الريف المصري خارج دائرة ثقافة المدن اليونانية في العهد الهليني الذي امتد ألف عام، وتوزعت مصر على ثنائية ثقافية فإن هذه الثنائية لا تلبث أن تزول لصالح اندماجها في الهوية العربية. ابتدأت عملية التعريب مترافقة مع الأسلمة حول (الفسطاط) والمدن الأخرى: مركز الإدارة والثقافة

(1) أحمد عبد المعطي حجازي، رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، مصدر سابق، ص 65.

(2) المصدر السابق، ص 66.

العربية، ومربض الجند، وملتقى خطوط التجارة الدولية. تعرّبت هذه المدن بسرعة مذهلة لاستقرار النخبة الحاكمة العربية فيها، ولنشرها لغتها ودينها فيها⁽¹⁾ وساعد اندفاع التعريب، تعاظم هجرات القبائل العربية، التي تركزت في البداية حول المدن، ثم اندفعت لاحقاً في كل مكان ناشرة أينما ذهب اللغة العربية والإسلام.

هجرات القبائل العربية قبل الفتح لا تقارن بما تلاه، أقبلت في العهد الأموي هجرات متتالية أكثر شدة واتساعاً وتأثيراً. اثنا عشر قبيلة من قريش وقيس وجهينة والأزد وحمير ولخم، وهبطتها في العهد الفاطمي قبائل أخرى من عرب الشام، وأفريقيا الشمالية، وبني سليم وبني هلال وخزام... عدا قبائل كتامة وزويلة⁽²⁾ وانتشرت في المدن والصحراء. وكما يلاحظ الدوري أن الهجرة إلى مصر لم تنقطع فقبيلة طي لم تظهر في مصر إلا في القرن الثاني. وكانت الهجرة المهمة لربيعة زمن المتوكل العباسي (247هـ) التي ذهبت أعالي الصعيد نتيجة انتشار القبائل العربية في البلاد. وهاجرت جماعة من كنانة (من الحجاز) في أواسط القرن الرابع. والموجة الهلالية في القرن الخامس، وذهبت بعض القبائل كجهينة إلى حدود النوبة. ويكفي القول مع الدوري أن جموع العشائر التي نزلت مصر بلغ حوالي التسعين فصار التعريب شاملاً خلال القرن الثالث الهجري⁽³⁾.

تلا استعراب المدينة المصرية استعراب الريف، إما بعامل هجرة الفلاحين إلى المدن، أو عن طريق انسياح القبائل العربية في الصحراء الغربية على شكل قبائل رحّل، واستقرار قسم منها واختلاطه بالفلاحين، وهذا ما يفسر وجود قرى ما تزال تحمل أسماء بعض القبائل العربية. في أخصب مناطق مصر كالمنوفية والغربية حيث نجد (كوم مازن)، (وصفط جذام)، (والقرشية)، وغيرها. بالإضافة إلى مساهمة سياسة (الارتباع) التي اتبعتها إدارة الفتح منذ البداية. أي توزيع القبائل على الأرياف في فصل الربيع للترويح والعناية بالخيل... وقد طلب عبد الله بن الحجاب من القيسية الذين جاء بهم إلى مصر فلاحه

(1) مكسيم رودنسون، العرب، فصل ثاني، مصدر سابق.

(2) صبحي وحيدة، أصول المسألة المصرية، مصدر سابق، ص 60.

(3) راجع: عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص 69.

الأرض.. وتوسعت حركة انتقال العرب إلى الريف والانتشار فيه بعد أن أسقط المعتصم العرب من ديوان الجند 218هـ⁽¹⁾.

إن مصر لم تنتظر حتى انتهاء الهيمنة العربية «لكي تتمصر الطبقة الحاكمة العربية فيها» على حد تعبير المفارقة اللفظية المقلوبة لسمير أمين (فمن اندمج بمن؟!). فمنذ القرن الثامن صار الطابع العربي هو اللون الغالب «فنحن لا نكاد نبلغ القرن الثامن ونلتقي أول مصري كتب عن مصر بعد الفتح، وهو ابن حكيم حتى نجدنا أمام مجتمع عربي بارز المعالم مثل مجتمعات دمشق والمدينة ومكة المعاصرة. فأهل هذا المجتمع عرب وتفكيرهم عرب وتقاليدهم عربية»⁽²⁾.

ضد منطق نظريته، وضد منطق التاريخ، يؤكد أمين على غياب الأمة العربية وزوالها، وبروز الأمم القطرية وفي مقدمتها الأمة المصرية، وذلك على أثر انهيار الدولة الموحدة العربية مرة، وسقوط التجارة الدولية مرة أخرى. إذ يشير: «لقد حافظت مصر دائماً على نوع من الاستقلال حتى في العصر الذهبي للأمة العربية، لأن الواحة المصرية تشكل تكويناً فلاحياً... إذ كان مجمل هذا العالم فقد طابعه كأمة ليصبح قضية شعوب بدءاً بالقرن الثالث عشر، وخاصة القرن السادس عشر، فإن مصر عادت آنذاك لتؤكد ذاتها من جديد، كأمة مستقلة»⁽³⁾. بل يذهب أبعد حين يقول «يمكن الكلام في كل الأزمنة عن أمة مصرية، في حين يمكن الكلام بصعوبة عن أمة عربية» ولم لا؟! طالما يتحدث سمير أمين عن «أمة مصرية أبدية». وكما قال عبد المعطي حجازي «إن هذه كلها آراء تتميز بالرعونة والافتقار إلى المنطق، وإنما أملاها على الباحث حضور تلك الفكرة الصورية حول خلود الشخصية المصرية القديمة.. فضلاً عن اضطراره لمسيرة افتراضاته حول استقلال المجتمعات الزراعية وميلها للتمايز حتى في إطار الدولة العربية الواحدة، وأخيراً نقص معلوماته عن مصر العربية الإسلامية»⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ص 68.

(2) صبحي وحيدة، أصول المسألة المصرية، مصدر سابق، ص 62.

(3) سمير أمين: الأمة العربية، مصدر سابق، ص 214.

(4) أحمد عبد المعطي حجازي، رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، مصدر سابق، ص 111.

ونحن لا نرى كيف يمكن التوفيق بين ادعاء أمين أن المجتمعات الزراعية تزدهر مع ازدهار التجارة البعيدة، وأن انهيار هذه التجارة في القرن السادس عشر حمل معه ظهور أمة مصرية، فهذا كما يقول حجازي خطأ نظري تاريخي مزدوج فلا نعرف كيف يؤدي هذا العامل السلبي (انهيار التجارة) إلى قيام أمة مصرية «اللهم إلا إذا ظهر لنا أن الزراعة المصرية قد نهضت، ونشطت، وأدى إلى قيام طبقة اجتماعية حققت لمصر قومية مصرية مستقلة، وهذا لا يبدو لنا منطقياً حسب نظرية سمير أمين التي نفهم منها أن الزراعة المصرية لا بد أن تكون تخلفت بعد القرن السادس عشر بسبب انهيار التجارة العربية. وهو ما تثبته الوقائع التاريخية، حيث نرى أن الزراعة ليست وحدها التي تخلفت، بل أن الوحدة السياسية المصرية نفسها قد تصدعت تصدعاً شديداً خلال فترة التبعية العثمانية»⁽¹⁾. وعندما قامت مصر بثورتها في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر «تميزت - ثورتها - بالرغم من فشلها المتكرر باتجاهها القومي العربي»⁽²⁾ الأمر الذي لا يجد تفسيره عند أمين، بل ولا ذكره.

تماثلت أوضاع مصر مع بقية أقطار الوطن العربي الواقعة تحت المظلة العثمانية. فأين هي الدولة المستقلة المركزية، وطبقتها القومية التي تشرف على اقتطاع وتنظيم الفائض، وأين هو الخراج الوافر، تلك العوامل التي يجد فيها سمير أمين سبباً لظهور الأمة. إن أمين يقع على خلاف مع نظريته بادعائه وجود أمة مصرية عقب انهيار التجارة العالمية، قبل أن يقف في تعارض صارخ مع وقائع التاريخ. لم تنهض مصر إلا وظهر وجهها العربي الذي تجهر به. وفي أشد حالاتها تعاسة ظلت ذاكرتها التاريخية وثقافتها الشعبية عربية بالعمق، ولم ينقطع خطها العروبي أبداً، ولا صلتها العربية بشراً وجغرافياً، حتى بعد تصدع الدولة العربية. ولم تضعف صلتها الثقافية العربية بل اغتنمت. ففي زمن الطولونيين (القرن الثالث الهجري) تصبح عاصمة دولة كبيرة تتألف منها إلى جانب الشام وبرقة، وتظل كذلك في عهد الإخشيديين، في القرن

(1) المصدر السابق، ص 113 - 114.

(2) المصدر السابق، ص 114.

الرابع الهجري تصبح عاصمة الخلافة الفاطمية التي كانت حدودها، زمن الازدهار، تبدأ من المغرب الأقصى وتنتهي عند الفرات، شاملة مع ذلك اليمن وشمال السودان، وجزيرة صقلية⁽¹⁾ حتى إبان حكم المماليك لم تنعزل عن الشام أو عن المغرب. لعبت بقيادة قطز دور الحامي السياسي للمشرق العربي أمام الزحف المغولي. ولكن الطبقة الحاكمة المملوكة التي وُحِّدت مصر والشام لثلاثة قرون لم تتحول إلى طبقة قومية تفرز لغتها وثقافتها وسلوكها في القاع الشعبي. بل في أثناء تألقهم تسابقوا في رعاية الثقافة العربية واللغة العربية، وفي الحالات التي اندمجوا فيها بالسكان فقد تعربوا، ولم (يتمصروا) بالمعنى المخالف للعروبة حسب ما يدّعيه أمين. وهل هناك من تمصير خارج الهوية العربية؟!

يلاحظ حجازي، أنه بإمكاننا رد بدايات الوعي العربي في مصر إلى أواسط العهد المملوكي (الرابع عشر ميلادي) حيث «لم يبق بعد القرن الخامس عشر مصري واحد يتحدث بغير اللغة العربية» فشهد بالإضافة إلى ذلك نهوضاً «للثقافة العربية الكلاسيكية التي تمثلت في إنشاء دوائر المعارف، والمعاجم، والمؤلفات الكبرى على نحو ما نرى في (لسان العرب) لابن منظور (الثالث عشر والرابع عشر)، و(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي (الرابع عشر)... ومؤلفات السيوطي (خامس عشر وسادس عشر)، والدميري صاحب (حياة الحيوان الكبرى)، والنويري صاحب (نهاية الأرب) وغيرهم ممن صبّوا جهودهم في الإحاطة والإبداع العربي.. مما يذكر بحركة الإحياء الكلاسيكية في فجر النهضة الأوروبية...». وقد نشأ موازياً لهذه الثقافة العالمية، أو متقاطعاً معها، أدب شعبي «على أساس قصص المغازي، وأيام العرب، أضاف إلى الأدب العربي أشكالاً لم يكن يعرفها من قبل، كالسير الشعبية التي تدور حول بطولات عترة، والظاهر بيبرس وأبي زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، وغيرهم من أبطال هذه القصص الشعبية التي كان لها تأثير عظيم على حياة المصريين والعرب عامة. فقد ساهمت مساهمة كبيرة في حياة الوجدان الشعبي منذ العصر المملوكي إلى

منتصف هذا القرن الذي نعيش فيه، وقد شارك في كتابة هذه السيرة أو في روايتها بطرق شتى، مؤلفون ورواة مجهولون من مختلف الأقطار العربية، وإن كانت مساهمة المصريين في ذلك أكبر.

فنى المؤلف الشعبي المصري يختار في هذه السيرة أبطالاً من العرب، ويرى في التاريخ العربي كله تاريخاً قومياً له، ويجعل من الأقطار العربية كلها مسرحاً لأحداثه⁽¹⁾. وإذا كنا قد بدأنا نرى منذ القرن التاسع عشر أسراً مملوكية تستقل هنا وهناك كما في مصر والعراق وتونس، أو تصدعاً للقطر الواحد فلم تكن مصر استثناء إذ تعرضت هي نفسها للتبرئة، فيخبرنا الجبرتي أن الأمير العربي همام شيخ قبائل الهوارة كان شبه مستقل ببلاد الصعيد في القرن الثامن عشر، وأن زعيماً عربياً آخر هو سويلم بن حبيب كان شبه مستقل بشرق الدلتا فضلاً عن استقلال أولاد علي بقرب الدلتا، فلم يكن للباشا العثماني والمماليك إلا القاهرة وبعض المدن وهذه لم تسلم هي الأخرى من هجمات البدو⁽²⁾.

لم تخف على نابليون، هذا الاستراتيجي التاريخي النابه، الهوية العربية التي تطبع مصر والعرب عموماً، على الرغم من فداحة المشاكل التي كانت ترقد فيها المنطقة جميعاً في الفترة نفسها التي يُرجع إليها - أمين - بروز الأمة المصرية، فيكتب في مذكراته «والذي يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التي توالى على مصر في المائتي عام الأخيرتين (يقصد منذ عام 1600) يوقن أنه لو عهدت إلى والي من أهل البلاد.. بدل أن تعهد إلى اثني عشر ألفاً من المماليك لاستقلت المملكة العربية التي تتألف من أمة تخالف غيرها من الأمم مخالفة كلية بعقليتها وأوهامها ولغتها، وتاريخها وشملت مصر وبلاد العرب وشطراً من بلاد أفريقيا»⁽³⁾.

إن نابليون لم يبتكر الشعور القومي في البلاد العربية - كما يقول لويس

(1) المصدر السابق، ص 98.

(2) المصدر السابق، ص 90.

(3) عن لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، كتاب الهلال، ط3، 1969، ص 66.

عوض - فقد كان الشعور القومي يتجمع تلقائياً، بسبب سوء الأوضاع السياسية⁽¹⁾. ألم يحاول محمد علي (وهو الرجل الألباني) أن يستغل ما هو قائم على الأرض العربية من عوامل موضوعية للأمة الواحدة بالإضافة إلى وحدة المشاعر ليسيّط سلطانه عليها جميعاً، فقد «أراد بالحرب التي أضرم نارها سنة 1832 - كما يشهد بذلك كلوت بك - أن يخطط الحدود الطبيعية للدولة العربية الجديدة»⁽²⁾. وقد كشف المؤرخ الدكتور محمد أنيس عن أن وفوداً عراقية قدمت على إبراهيم باشا، وهو في الشام، تطلبه بالزحف على العراق لضمه إلى الإمبراطورية العربية⁽³⁾ ومن لا يعرف قول إبراهيم باشا الذي ينضح بالعروبة «إن جيوشي لن تقف إلا حيث ينتهي الكلام باللغة العربية»⁽⁴⁾. فيما بعد سترفع حركة عرابي شعار العروبة ضمن ما رفعته من شعارات في وجه الخديوي وأعوانه الذين كانوا يرفعون شعار مصر قطعة من أوروبا⁽⁵⁾، الشعار الذي سترفعه الانعزالية المصرية المكيفة مع الاحتلال بعد هزيمة عرابي باسم الحداثة!

يتحدث محمود سامي البارودي عن الوجه العروبي لحركة عرابي قائلاً «لقد كنا نريد منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنتظم إلينا سوريا يليها الحجاز»⁽⁶⁾. وقد كان قلب عرابي مفعماً بالعزة القومية العربية إذ يقول في إحدى خطبه «لما رأينا أننا بتنا في إذلال واستعباد، ولا يتمتع في بلادنا إلا الغرباء، حرّكتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة»⁽⁷⁾، لم تظهر حركة تدعو إلى عزلة مصر عن

(1) المصدر السابق، ص 75.

(2) المصدر السابق، ص 87.

(3) أحمد عبد المعطي حجازي رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، مصدر سابق، ص 156.

(4) المصدر السابق، ص 156.

(5) المصدر السابق، ص 65.

(6) المصدر السابق، ص 182.

(7) المصدر السابق، ص 181.

أمتها العربية، واندماجها بدل ذلك في أوروبا إلا بعد هزيمة حركة عرابي، وفي المناخ المروع الذي تركته الهزيمة وفي ظل الاحتلال البريطاني، عند ذاك فقط برز التيار الانعزالي مستنداً، أو متكيفاً مع الاحتلال. وفي إطار سياسة تدعو إلى التلاؤم مع الاحتلال وواقع الاحتلال، وقانون الاحتلال، هذا التيار الذي عبّر عنه خير تعبیر (حزب العدالة) المماليء للإنكليز بزعامة لطفي السيد الذي خلط الحداثة بتطليق العروبة، مما كلف تيار الحداثة الشيء الكثير. لم تسترجع مصر وعيها العروبي بكل زخمه إلا بمواجهة الخطر الصهيوني في القرن العشرين، وفي خضم النضال الموحد الذي انسقت إليه شعوب الأمة العربية جميعاً والذي بلغ ذروته مع قيادة ناصر.

هكذا، على امتداد التاريخ الذي يدعي فيه سمير أمين بروز ما يسمى الأمة المصرية لم يحكم مصر إلا نخبة حاكمة غير عربية، وبالأحرى غير مصرية، وظل المجتمع الأهلي محافظاً على هويته العربية، ويعبّر حجازي عن هذه الحقيقة عندما يقول: «ونحن نرى أن الشعور العربي في مصر عبّر عن نفسه.. في مرحلة ازدهار المدن المصرية في عهد المماليك، وفي سنوات حكم محمد علي، وفي ثورة عرابي. ولدى بعض الزعماء والتيارات السياسية والفكرية في ثورة 1919، أخيراً في عهد عبد الناصر»⁽¹⁾.

14 - كما رأينا سابقاً، إن أمين قد سجل انحدار وجود الأمة العربية التاريخي منذ القرن الثالث عشر، والقرن الخامس عشر على الأقل المتواقت مع انهيار التجارة الدولية، ولقد ناقشنا ذلك في حينه. الآن، وعلى قاعدة ما تم، في العصر الحديث الرأسمالي الأمبريالي، يلاحظ أمين الميل إلى المزيد من الانحدار والتفكك في الجسم القومي العربي، بعد أن أصبح العرب في الموقع الطرفي من هذا النظام. هذا الانحدار يقوي ما سبق من تفكك باتجاه نشوء الدولة، الأمة القطرية، كما يسجل تنازع ذلك الميل مع بروز الشعور القومي العربي، ومع النهضة الثقافية العربية الحديثة.

(1) المصدر السابق، ص 87.

على هذا الأساس يأتي حكمه وتقديره للوحدة العربية بأنها «لا تعني أنها . . . ممكنة للتو، وليس هذا ضرورياً، ولا حتى نافعاً (كذا؟! لا بل هو خطير بالأحرى، تمثل حالة انتقال طويلة تحترم الذاتيات الإقليمية . . . تمثل الاستراتيجية الأفضل»⁽¹⁾. يذكرنا بتعبير بريماكوف حول نفس المسألة «إن الوحدة هدف أبعد من استراتيجي»⁽²⁾.

في سياق تلك المقدمات، تضيع ملاحظة - أمين - الإيجابية عن ارتباط الانبعاث القومي الثقافي العربي، وبروز المشاعر القومية، والحركة القومية العربية بالكفاح المناهض للاجتياح والسيطرة الأمبرياليين، ضمن ضجيج تحليلاته الطباقية لمسألة تكوّن الأمة، أو لتاريخية الحركة القومية، وتتحول إلى ملاحظة هامشية، أو جملة من اللغة السردية التجريبية لا تدخل في نطاق النظرية، أو في التعقيد النظري. وبما أن كل شيء، عند سمير أمين، فيما يخص الأمة مرتبط بالدولة والطبقة القومية، وحجم الخراج المقطوع المناسب، تصبح المشاعر القومية والثقافية، ووحدة اللسان والأرض والذكريات والتاريخ، مسائل نافلة في مجال الحديث عن وجود الأمة. فتساؤل الرئيس يتركز على إن كان هناك طبقة اجتماعية جديدة قادرة على توحيد الاقتصاد، ومركزة الدولة، ويصل إلى نتيجة فحواها، أن «ليست الطبقة البرجوازية التي تؤمن الوحدة الاقتصادية السياسية للبلاد . . . وسيكون ضعف هذه الطبقة إذ هو ضعف الأمم العربية (المصرية، السورية . . .) كما ضعف الأمة العربية»⁽³⁾، بالإضافة إلى يأسه وما يسميه برجوازية الدولة، أو البرجوازية الصغيرة، بل وحكمه السلبي على كل أقسام ما يسمى البرجوازية، وكأن ما حصل للجمهورية العربية المتحدة، وللمشروع الناصري القومي، ولمشروع الشريف حسين مع النخب المدنية في المشرق العربي، ومن قبله محمد علي ما هو إلا تجلٍ طبيعي لجوهر طبقة عاجزة، دون حساب العامل الخارجي الذي حال خلال المئة سنة

(1) الأمة العربية، مصدر سابق، ص 195.

(2) راجع قضايا الخلاف في الحزب الشيوعي السوري. دار ابن خلدون.

(3) الطبقة والأمة، مصدر سابق، ص 141 - 142.

الأخيرة دون بلوغ العرب لهدفهم الأجدى والأسمى: الدولة العربية.

إن أطروحات سمير أمين لا تختلف عن أطروحات التيار القديم الدوغمائي، إلى الدرجة التي لا نفاجاً بتلاقي تعابيره مع تعابير (بريماكوف) الذائع الصيت في ملاحظاته على برنامج الشيوعيين السوريين، عندما كان هذا الرجل أحد كرادلة الكنيسة المسكوفية السوفييتية، قبل أن يصبح مستشاراً لغورباتشوف، فمديراً لمخابرات روسيا، ووزيراً لخارجيتها الآن. لا ندري! وعندما كان لأقواله ولأقوال أمثاله قوة القانون والتطابق معها مقياس وحيد للأمنية عند الأحزاب المسكوفية المحلية.

بالإضافة إلى هذا، فإن وقوع أمين في أسر فكرة الكمال/النقص جعل من السهل عليه الاستخفاف بحقيقة وجود الأمة العربية لمجرد ما اعترأها من نقص قياساً إلى (مفهومها) المتخيل عنده، أو لعدم تطابقها مع الأنموذج الأكمل، والحال أن الأمة العربية كيان يخضع للصيرورة، وأن ليس هناك كمال مطلق. وكما يقول مرقص في محاججته لبريماكوف «الأمة العربية موجودة، وجودها ليس خارج الصيرورة، وقضية اكتمال تكوينها، وإكمال صيرورتها قائمة نظرياً على وجودها.. الأمة العربية موجودة بالمعنى الماركسي الشعبي لا بالمعنى البارمنيدسي الأفلاطوني»⁽¹⁾. ولو فكر سمير أمين ملياً لوجد أن الميلين اللذين يسيطران على تطور العرب من الزاوية القومية أولهما يقف وراء الغرب الإمبريالي وموجوداته وتجلياته الداخلية: التجزئة وتعميق الميول القطرية والدفاع عنها بالسلاح إذا اقتضى الأمر، والاقتصاد التابع، والوجود الصهيوني، والميل الآخر تقف وراء الكتلة الأساسية من الشعب العربي. وهو يتجلى بازدياد الوعي بالتضامن القومي، وبيقظة الحياة القومية اللغوية والثقافية، وبالنهوض المتتابع لحركة القومية العربية السياسية المتجلية أحزاباً ومناخاً سياسياً. وكانت ذروتها عندما تجسدت في الجمهورية العربية المتحدة كدولة

(1) راجع: الياس مرقص، الماركسية السوفياتية والقضايا العربية، دار الحقيقة، بيروت،

جنين للدولة القومية الواحدة. من هنا يمكن القول إن تاريخ العرب الحديث ما هو إلا تاريخ الغزو الغربي الذي يترك بصماته في التجزئة وبتأسيس الكيان الصهيوني، ورعايته الاقتصاد التابع وهو أيضاً تاريخ النضال العربي ضد هذا الغزو وتجلياته المختلفة. من هنا ليست اللغة العربية المشتركة، والثقافة والملاح الضاربة عمقاً في التاريخ هي وحدها (الموضوعي) الإيجابي لصالح وحدة الأمة العربية، بل أيضاً كفاح العرب - كما يقول مرقص - ضد الموضوعي الإمبريالي التجزيئي أي العامل السياسي⁽¹⁾.

(1) المصدر السابق، ص 49.